GHADIRI

AHADITH

2269
.3745
.311

2269.3745.311
al-Ghadiri
Ahadith

DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE

Princeton University Library
32101 073553305

نهاد الغادري

الحاوية

جميع الحقوق محفوظة

al-Ghādiri, Nihād

نهاد الغادري

Aḥādīth

الحاديث

الطبعة الاولى ـ حلب

جميع الحقوق محفوظة

مطبعة الضاد

(RECAP)

2269
.3745
.311

الإهداء

إلى أبي :

الذي أرادني بغير ظفر
ولا ناب ، في دنيا الأظفار
والأنياب ، أقدم لهذه
الأحاديث .

ك

9-10-75 1545

فهرس

الموضوع	الصفحة
أما قبل	٧
في المقالة العربية	٩
وظيفة الادب	١٧
شيء من التاريخ وشيء من الحديث	
في النكتة والنادرة	٢٥
مأساة اللغة العربية	٣٣
في المهنة	٦٧
أبو محجن	٧٣
راعي الغنم ـ من صور البطولة ـ	٨٢
بين الشعبي والاخطل	٨٩
زرياب ـ معلم الناس المروءة ـ	٩٧

كتب للمؤلف :

مناقشات في الأدب - مهمة الادب ووظيفته . أمثلة ، وفصول تطبيقية في النقد - قيد الطبع

زرياب صاحب حضارة الاندلس - حياته واثره في الحياة الفنية والاجتماعية قيد الطبع

نزعات وحركات اشتراكية في التاريخ العربي - اول محاولة في المكتبة العربية لتفسير التاريخ العربي تفسيراً اشتراكياً . قيد التحرير

أما قبل :

كنت احب ان ارسل هذه الأحاديث بغير مقدمة لها ولا تقديم ولكنني ذكرت قول ابن بسام :

ما فيه ليت ولا ، لولا ، فتنقصه وانما أدركته حرفة الأدب

فبدا لي ان اجعل تقديم الكتاب ، كلمة في حرفة الأدب . هذه الحرفة التي تلحق بالانسان لحق المرض ، فيلحقه بها نقص القدر ، وهوان الشأن ، ونزول المكانة .

ولكن ، هل الأدب حقاً حرفة تدرك الأديب فتنقصه ؟

لقد كان الأدب العربي في قرون خلت يعيش في ظل الدولة والارستقراطية العربية فكانت تعينه وتمده وتقويه ، وكانت تقدره حق قدره وتنزله منزلته التي هي له . ثم جاء القرن العشرون بديموقراطيته فنقل الأدب من رعاية الدولة والطبقة الارستقراطية الى رعاية الشعب . فالشعب هو الذي يفرض منزلة الأديب في المجتمع ، فيرتفع بها او ينزل ، باقباله عليه او اعراضه عنه .

ولكن الأدب العربي - والفكر بوجه عام - اصبح اليوم - عندنا -

اضيع من الايتام في مأدبة اللئام. فلا ارستقراطية ترعاه ؛ ولا شعب يقبل على قراءته وتشجيع كتابه ، لأن معظمه جاهل ، ومثقفه ضعيف الثقة بكل ما هو عربي ، قليل الايمان . فهو يعرض عن قراءته ليقبل على قراءة الادب الاوروبي غثه وثمينه دون اختيار ولا تفريق .

ولقد يكون لهذا القارئ بعض العذر في كثرة الغث فيما ننتج، وكثرة الاجادة فيما ينتجه الاديب الاوروبي . ولكن الذي لا شك فيه ان كثيراً مما ننتج او بعضه جيد يستحق القراءة ويستحق التشجيع .

وثمة حقيقة اعتقد بها وأومن ، فما لم يقبل الشعب على القراءة فلن يكون عندنا ادب ولا كتابة ولا ادباء وكتاب ، لأن الأديب والكاتب ينفعلان بالاقبال والتشجيع فيندفعان للتحسين والتجويد .

هات لي شعباً كشعب اوروبا وقراء كقرائه ، أعطيك ادباً كأدبه ، وانتاجاً كانتاجه .

وبعد :

فان هذه الاحاديث لم اضعها لتجمع في كتاب فقد انشأتها في اوقات متباعدة مختلفة ، وكان بعضها استجابة الحرفة ، وبعضها استجابة الوجدان ، فليأخذها القارئ كما شاء ، وليحكم لها او عليها بما شاء .

اما انا ، فحسبي انني القيت في صحراء هذه الارض بذرة ، فان أجنتها ، خيراً . وان نبذتها ، فقد عملت لأرضى ، لا ليرضى الناس .

في المقالة العربية

« حديث اذيع من محطة الاذاعة السورية بدمشق »

لا أريد ، لأني لا استطيع في هذه العجالة من الحديث أن ادخل في التفاصيل . فللمقالة العربية تاريخ قديم وحديث ، وللمقالة مقام في الادب العربي بوجه خاص والفكر العربي بوجه عام ، وللمقالة وضع كائن ووضع يجب ان يكون .

وفي المقالة العربية ضعف ، ولهذا الضعف اسباب ، وهذه الاسباب متصل بعضها بالثقافة ، وبعضها بالنفس ، وبعضها بالتاريخ .

والمقالة العربية بعد هذا ظاهرة عقلية كما سيجيء معنا في الحديث.

لذلك كانت الاحاطة المفصلة ليست موضوع حديث يذاع ، أو محاضرة تلقى ، او مقال يكتب .

وانما أريد ان اتحدث حديث الاحاطة السريعة فأقف عند النقاط الرئيسية للموضوع ، مستوعباً موجزاً ، لاثيرها فحسب . واقول اثيرها فحسب لانني اعتقد ان مهمة الحديث كمهمة المقال ، او المحاضرة لا تتعدى الاثارة ، اي فتح الباب .. والميدان بعد فيه متسع ورحابة .

وتاريخ المقالة الحديث هو تاريخ الصحافة ، اوائل القرن الماضي ، فقد ظهرت بظهورها ، ونمت معها ، وكان للصحافة اثر بارز في تكوينها وتمشئتهـا .

اما تاريخها القديم فيرجع الى عهد معاوية حيث انشأ ديوان الرسائل فكانت الرسالة ، ثم الى القرن الرابع للهجرة حيث كتب بديع الزمان الهمذاني مقاماته المعروفـة .

والرسالة والمقامة شديدتا الشبه بالمقالة من حيث قصر النفَس ، وان يكن موضوع الاولى اقتصر على اداء الاغراض السياسيـة اول نشأتها ، ثم تطورت فأدت اغراضاً اخرى عند عبد الحميد ، وابن المقفع والجاحظ والمعري .

وموضوع الثانية أي المقامة ، اقتصر عند بديع الزمان على قصص صغيرة ادارها على متسول هو ابو الفتح الاسكندري ، كان يطوف من مكان الى مكان مستجدياً بفصاحته . ودائماً كان ابو الفتح هذا يتلاقى مع راو له يحكي اخباره هو عيسى بن هشام . وكانت القيمة الاولى في هذه المقامات للغة لا للفكرة ، ولقد تعتبر المقامة ايضاً تاريخاً للقصة .

على اننا اذا اوغلنـــا بعض الشيء في التاريخ قبل القرن الرابع وبعده ، والقينا نظرة عامة على نتاج العرب الفكري ، وجدنا المقالة بطابعها العام من حيث قصر النفَس ظـــاهرة عقلية متميز بها التاريخ العربي .

ولن تجد ما ثقبت وبحثت الا القليل من هذا الانتاج ينطلق من حدود المقالة ، اي حيث يكون النفس طويلاً والاحاطة عريضة ، واكثر

هذا الانتاج مترجم ، واكثر منتجيه من اصل غير عربي .

وهنا نقف لنتساءل عن أسباب هذه الظاهرة :

أتراها الطبيعة وعواملها البيولوجية فعلت فعلها في العقل العربي ؟

أتراها المعيشة ؟

أتراها الطفرة التي قذف بها الاسلام العرب على الحياة يقودونها مسلمة العنان ؟

أتراه الاختلاط السريع ؟

أترى هذا كله ، أو بعضه ، اثر في انتاج العرب الفكري فجعله في اكثره على جودة بعضه قصير النفس وكدت اقول مخطوف النفس.

لست اشك في ان استجابة النفس العربية لكل هذه العوامل مجتمعة ، وغيرها ، التي رافقت الانطلاق العربي والاسلامي هي التي حددت طابع الانتاج ورسمت خطوطه .

إذن فالمقالة ليست جديدة علينا ، وإذن فتاريخها مع الصحافة ليس تاريخاً جديداً ، بل نستطيع ان نعتبره امتداداً جديداً لتاريخ قديم . امتداداً تأثر كغيره باسلوب الحياة ، فتعددت اغراض المقالة بعد ان كانت محصورة وارتدت الطابع التفكيري للحضارة الحديثة ، ومواضيعها .

وقد اثر تعدد اغراض المقالة على قيمتها تأثيراً كبيراً فقد غدت شيئاً مهماً ذا قيمة ، بل غدت شيئاً خطراً اذ انها اصبحت الوسيلة الاقوى للتوجيه والتأثير في مختلف الوان النشاط الفكري . وبخاصة الناحية السياسية التي تسلطت على الحياة تسلطاً مرعباً .

ومصدر الخطورة في قوة المقالة وسيطرتها ، وخاصة السياسية منها ، انها لا تستعمل في الغالب اداة شريفة للتوجيه نحو مثل عليا او غايات انسانية نبيلة .

فهي تنزع في الاكثر منزع المصالح الفردية والغايات التي يسعى اليها نفر من الناس يرون في الحياة فرصة تهتبل ، للعيش ، وتحسين اوضاعهم كأفراد على حساب حياة الجماعة .

من هذا كان خطر المقالة كبيراً ، ولكننا لن نقصر البحث على المقالة السياسية ، فهي لون وان يكن اكثر ذيوعاً الا انه ليس كل شيء في موضوع المقالة ، فقد اصبحت وسيلة التعبير عند الكاتب العربي في كل ما يعرض له وما يفكر فيه وما يجيب عنه . فهي اذن الوسيلة شبه الوحيدة للتعبير عن الادب والثقافة عامة في الحياة العربية .

ولهذا أسباب عامة وخاصة :

العامة منها : انها نسخت كما أسلفت او حلت محل المقامة والرسالة الشبيهتين بها .

والخاصة :

١ً — سطحية الكاتب العربي وقصر نفسه

٢ً — الرغبة بالشهرة . فالمقالة ملك الصحيفة وللصحيفة سيطرة على القارىء العربي بما تحمله من عنصري السهولة والسرعة .

ولكي تعرف ما اذا كانت المقالة العربية قد أدّت الغاية الرئيسية او قامت بما يجب ان تقوم به المقالة ، يجب ان نحدد الغاية من هذا اللون من الكتابة .

ولكي نجيب اجابة اقرب الى الصحة والصواب نضع هذا السؤال :

هل في ملك المقالة ان تعبر تعبيراً كاملاً عن غاية ثقافية ؟ أو بشكل آخر : هل في ملك المقالة ان تكوّن ثقافة !

اما أنا فأجيب في غير تردد : لا . لانني لا اعرف ثقافة تكونت بغير جهد ، ولا أعرف جهداً يبذل في غير الكتاب . الكتاب ذي الموضوع الواحد ، والنفس الطويل ، فهو وحده يملك الاحاطة بالموضوع الاحاطة المفصلة .

اما المقال فليست مهمته ان يعطي ولا ان يكوّن ثقافة لأن نفسه يقصر ، ولأنه يقف عاجزاً عن تخطي الشعاب والمفاوز ، واجتياز المسافات والامداء .

وانما مهمة المقال ان يثير ، يثير مشكلة . مهمته ان ينبه ، ينبه الى فكرة . مهمته ان يومىء ، لا اكثر ولا اقل ايضاً . ومتى خرج عن هذه المهمة ضاع ولم يحقق غاية ، فلا هو بعث على التفكير ، ولا هو انزل على البحث مشكلة ، ولا هو اعطى بعد هذا رأياً مفصلاً كاملا .

ثم ان القارىء مرهق بفعل اضطراب وجوه الحياة في القرن العشرين . فانتباهه شارد ، وقدرته على التفكير قد انحلت ، فهو يأخذ ما يأخذه خطفاً . وهو يوطد نفسه حين يمسك بالصحيفة ، وحتى بالكتاب احياناً كثيرة ، على بذل اقل الجهد ، اي على القراءة السلبية ، السريعة . قراءة عدم الفهم . فلا سبيل اذن الى تحميل المقال ما يكد ذهن القارىء في معرفته وتفصيله ، اذ ان الكاتب يدفع القارىء حين ذاك دفعاً الى ان يلقي جانباً بما كتب .

ولا اريد ان يتبادر الى الذهن انني اشجع او ادعو الى الكتابة الحالمة . اي الكتابة التي لا تنتظمها فكرة واضحة ولا رأي محدود . الكتابة المشوشة كأحراش الطبيعة المهملة المتروكة .

ولا اريد ايضاً ان يتبادر الى ذهن احد انني اوجه المقالة او احدد اغراضها ، فذلك ما لا حق لي ولا لغيري فيه . وانما انا ارسم حدودها العامة . ارسم لها الاطار الواسع . اما داخل هذا الاطار فان موضوع المقالة ، عنصرها المحرك للعمل . اي الباعث على التأثر والتعبير ، هو الذي يحدد وينظم الوضع الداخلي للمقالة . ويجب ان لا ننسى هنا طريقة الكاتب وقدرته على التعبير .

وليس للمقالة بعد هذا ان تعالج موضوعاً بروح الكتاب اي بالرسم والهندسة ، والتحديد والتركيز . ليس للمقالة ان تلقى نتيجة ولا ان ترسم قاعدة ولا ان تعطي قانوناً ، ولا ان تركز انفعالاً . اي انه ليس للمقالة ان تبلور الشعور والاحساس في فكرة ودراسة فتنقلهما من المنطقة الحارة ، منطقة الانفعال ، الى المنطقة الباردة ، منطقة التفكير .

مهمة المقالة محصورة في الاثارة على نحو يحرك الخيال ، اي يهيء الجو ، ويكوّن الادراك . ومالي لا اقول ان مهمة المقالة ان تكون السوط يلهب ظهر الكسل .

ثم هل لي ان اذكر هنا الحرارة ، ولا احددها بالدرجة . ولكنني لا اريدها في درجة التوهج والاشراق ، قليل من الحرارة ، حرارة الانفعال وحرارة التعبير ، ولا بأس من السخرية المسحوبة على جو الموضوع فانها الملح تعدّل الطعم . وليكن موقف الكاتب من القارىء

موقف الزميل ، موقف المحدث ، يهمس في اذنه باستمرار ، وحذار من موقف المعلم ، وحذار من الوعظ .

استطيع الآن ان اقول على ضوء هذا التعريف والتحديد لاطار المقالة العام ان المقالة العربية لم تحقق كل شيء من غاية المقالة . وانها ليست بعد ، في اكثرها طبعاً ، سوي محاولة ، كصنع التمثال من مادة رخوة قبل صبه في قوالب الجبص او النحاس .

ولعل ضعف المقالة العربية مبعثه أن كتابها لم يدركوا بعد الغاية من المقالة ادراكاً واضحاً محدداً .

وهنالك اسباب اخري للضعف منها تحكم اللفظ والاسلوب ، وهما عيب في كل انتاجنا الفكري قديمه وحديثه . فالكلمة عندنا تجر كلة ، والسجعة تخلف سجعة ، والجملة تسحب جملة ، دون ان تكون هنالك حاجة تعبيرية اليها .

ومن اسباب الضعف ايضاً التحديد والتركيز والهندسة وهذه كما اسلفنا من مقومات الكتاب ، وليس دائماً .

ومنها ان الـــذين يكتبون يكتبون دون وعي سابق للموضوع . فالكتابة عندهم مجرد رغبة ، ويجب أن يطاوعهم القلم والفكر .

وهنالك كتاب موهوبون فعلا ولكن الصحافة استعبدتهم بالشهرة ، فهم مضطرون ان يسلقوا آراءهم سلقاً ليجاروا سرعتها . والشهرة هـذه بعد قد استعبدت الجيل العربي كله .

ولست أحاول ان اغض من قيمة المقالة العربية ، او ان اصرف كتابها عنها ، وكلهم كتابها ! فقد اصبح من المستحيل عليهم حتى وان

توفرت لهم امكانية النفس الطويل والاحاطة العريضة ، والثقافة العميقة الشاملة ان يتراجعوا عن كتابة المقالة الى الكتاب ، لأن الجمهور لن يقبل حين ذاك على ما يكتبون . وقد ذكرنا ان القارئ اصبح لا يرضيه إلا تفكير السندويتش .

وليس امام الكاتب العربي عندي ، لكي يجعل لنفسه قراء الا ان يتخلى عن اسلوب المقال ، فيجعل منه وسيلة تبعث على البحث والتفكير ، لا غاية يعطي فيها الرأي قانوناً وقاعدة في ضغط وهندسة وتركيز .

وظيفة الأدب

فصل ملخص من كتابي : « مناقشات في الادب »

بيني وبين من ينقدون الأدب ويقرأونه خصومة بالغة كتلك الخصومة التي بينهم وبين الادب الجيد والفهم الصحيح .

فهم يقيسون الأدب بالمسطرة ويرسمونه بالمدورة ، ويصدرون في نقدهم له وفهمهم عن مذهب البدهيات الرياضية المقررة .

وبهذا يبدو لي في معرض الحديث عن وظيفة الأدب ، انه لا بدَّ من وقفة ونظرة نضع فيهما المقاييس . ونمسك بالموازين ، لنخلص بعد هذا الى نتيجة لا يتسع مجالها لغير غاية من توضيح رأي او جلاء فكرة .

نضع المقاييس ، ونمسك بالموازين ، ذلك انه من خطل الرأي ان نحكّم الذوق المتغير فيما يحتاج الى الاطمئنان والثبوت ، او بعض الاطمئنان والثبوت . فان فعلنا لم نأمن اعتساف الحكم ، وفوضى النقد والأدب ـ كما لكل شيء ـ قواعد تتميز بالخلوص والوضوح .

ولست ازعم انني مقدم جديداً فيما اقول وأرى ، فالكلام في

الشعر مكرور، والحديث عن الأدب معاد، واكثر من يكتب فيهما يجتر!

اقول هذا، وانحي امام اشياخ الأدب، فقد ملأوا الدنيا بكل جديد!

على ان مقياسي هذا ليس كالمقياس الذي يستعمله المهندس حيث للحركة الصغيرة قياس دقيق مضبوط، ولا ميزاني كذلك الميزان الذي يزن به الصيادلة او باعة الذهب، حيث يكون للذرة ثقل وحساب. لا، لست اشتط فأقول: ان مقياسي وميزاني - وكل مقياس وميزان - كهذين فأنهما عندي لا يغنيان عن صحة التمييز او قوة الذائقة، وهي شيء في الفطرة ليس بيدي امر خلقها على انك ان تعهدتها، وانا هنا افترض وجودها، اصلحها الدرس، وهذبها التحصيل واصبحت من بعد وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة التي تصح لدى الغير وان كنت لا انكر انها ستبقى في النهاية امراً من الصعب ان نحمل هذا الغير على الاحساس بها.

ولكن الذي ازعم انني مقدم شرحاً وتفصيلاً يكون فيهما بمجموعهما على قدر الامكان مقياس وميزان قد يصلحان في تجنب الخلط بالمقابلة والقياس.

ما وظيفة الأدب، وما غايته؟

سؤال لو ألقيته في مجمع ما لخرجت منه بأجوبة كثيرة! فان القيته في النخبة المختارة من نقاد الادب ورجاله، وجدتهما فريقين: فريق يمثل جانب مدرسه الفن للفن، فالأدب عنده غاية في ذاته، وفريق يمثل جانب الفن لخدمة المصلحة والحاجة، فهو من الفريق الاول في موقف النقيض من النقيض لان الادب عنده وسيلة لا اكثر.

وعندي ان الاجابة الاولى اجدر بالاحترام، واحق بالتقدير، فانها تجريد للادب من قيود الضرورة والحاجة.

واني لأرى ان اوان التفرقة الحاسمة بين الكتابة والادب قد آن فالكتابة هي التي يجب ان تخدم المصلحة وتؤدي الغرض ، فتكون بهذا للمواضيع المحدودة الموقوتة، ويبقى الادب تعبيراً عن الانفعالات والاحاسيس العامة في الحياة .

ولا يعني هذا ان الادب لا يحقق في صورته هذه مطلباً ، ولا يؤدي غرضاً ، فقد يحقق ، وقد يؤدي ، ولكن هذا ليس غايته ومرماه ، ولا قيمة له في مسبار النقد ، وميزان الفن ، لان امتياز العمل الادبي منوط بانفساح الشعور وعمقه ، وقوة التعبير وايحائه .

وهنا يعترضنا هذا السؤال : او ليس من حق الامة على الاديب او الشاعر ان يمثل حياتها في الحدود المرسومة ، والشروط المذكورة ؟ اي ان يشعر بهذه الحياة ويردها لنا من نفسه مصهورة متبلورة ؟

فأقول : ليس هذا الفرض أقل خطأ من اشتراط المنفعة والحاجة . فالأديب او الشاعر هو الذي يأخذ من الحياة . ولكننا لا نستطيع ان نحدد له ما يأخذ ، ولا ان نفرض عليه ما يعطي ، والحرية في الاخذ والعطاء هي التي تخلق الشاعر الكبير ، والاديب الكبير .

ولقد احب بعد ان اوضح واحدد . فلست ارمي من دفاعي عن نظرية الفن للفن ما يرمي اليه معتنقوها ، والقائلون بها ، والقارئون لها وليس من مفهومها عندي ان الادب غاية لا وسيلة بالمعنى المطلق الشامل لهذا التعريف . فالأدب وسيلة حقاً . وسيلة نقل وتأدية شيء اسميه انفعالاً شعورياً ، وانما قصدت فيما اسلفت قوله من قبل انه ليس لنا ان نتساءل عن غاية هذا الانفعال ومرماه ، وعما اذا كان منه نفع ؟ فالانفعال لا يكون الا خالصاً غير مشوب . قيمته محصورة في ذاته . ومجرد وجوده مبرر كامل لوجوده .

ولعل النظرية تستقيم بعد هذا اذا اضفت : ان فن الادب شيء يستحيل تقويمه اذا نحن حكّمنا فيه اموراً خارجة عن طبيعته .

ولست اجد بأساً هنا من الـــذهاب مذهب الاستاذ « لاسل آبركرمبي Lascles Aqercrombie » في التسمية والتعريف . فقد قسم الادب في كتاب له « قواعد النقد الادبي » الى نوعين فقال : اننا نستطيع ان نعتبر كتاب اصل الانواع مثلاً لداروين قطعة فنية اذا نظرنا الى مقدرة داروين فيه على التعبير ، بغض النظر عن الغرض الذي يرمي اليه او قبوله على انه قضية مسلم بها ، فان فعلنا هـذا اعتبرناه ادباً . اي مجرد التعبير الذي له قيمته الخالصة ، فالادب التطبيقي اذن هو المؤلّف الذي نستطيـع ان نعتبره ادباً اذا غضضنا النظر عن غرض المؤلف ، فالشيء الذي أراد المؤلّف ان يجعله وسيلة لغاية يصبح في نظرنا هو الغاية بعينها » .

ثم ينتقل آبركرمبي فيقول : وسنعني بالادب الصرف وحده . اي بالتعبير من حيث هو تعبير له قدره وقيمته .

لسنا إذاً مطالبين بالحكم على قطعـة ادبية في منفعتها . ان الفن يجب ان لا يخرج بنا الى غير دائرة الفن .

وتقسيم آبركرمبي الادب الى تطبيقي ، وصرف . تقسيم حسن مقبول مبدئياً اذ انه يسهل صعب البحث ، ويعبد وعر الطريق ، على ان لي مآخذ كثيرة على اقواله ليس مجالها حديث عاجل ، وقول سريع .

كنت منذ ايام اقلب كتاباً مقروءاً هـــو دفاع عن الأدب « Defense des Lettres » « لجورج ديهاميل Georges Duhamel » الكاتب الفرنسي المعروف ، ومن عادتي في القراءة ان ألحق على الهوامش شرحاً وحاشية وتعليقاً . واذا بي اقف في التقليب عند موضوع في الكتاب

اسماه المؤلف « عن وظيفة الكاتب الاجتماعية » .

وللتوضيح قبل كل شيء اعلن انه ليس ثمة فارق عند ديهاميل بين الأديب والكاتب فهو يقول : « الوظيفة الاجتماعية من بين الوظائف التي يستطيع الانسان ان يؤديها هي تلك التي تلاقي حاجة من حاجات الهيئة الاجتماعية . ومعظم المواطنين في هيئة اجتماعية عادية تشغلهم مهام عملهم الشخصي واعباؤه عن ان يجدوا المقدرة والوقت اللازمين لمعرفة العالم بالمعنى الفلسفي والشعري لهذه الكلمة . وان يعبروا في لغة لبقة عن خلاصة ما يكتشفون . وهم يكلون ذلك الى الرجل المختص . اي الى الكاتب الذي يناط به في حدود ما يتمتع من ثقة ان يزاول اعمال المعرفة » .

قرأت هذا البحث لديهاميل ، وكانت لي حواشي وشروح على اقواله وكلها مما يتصل بموضوعنا اليوم فآثرت نقلها .

يقول ديهاميل « فالكاتب اذاً يؤدي في نظري وظيفة اجتماعية عندما يعيننا على فهم الانسان والعالم فهما اصح ، وعندما يأخذ في نقل المجهول الى المعلوم كما يقول كلوديل » .

وقد علقت على قول ديهاميل هذا فقلت : إنه اي الكاتب او الاديب كما قد قررنا في مطلع هذه الناحية من الموضوع ، قد يؤدي وظيفة في مفهوم هذه الهيئة الاجتماعية ، ونظرها ومقياسها . ولكنه في مفهوم الفن ، ونظرية الادب يؤدي وظيفة وجوده ، وظيفة عبقريته لاغير . وهو اذ يعطي فانما يعطي لأنه اراد العطاء لا لأن ذلك واجب مفروض ووظيفة مطلوبة .

وفي مكان آخر يقول ديهاميل :

فوظيفة الكاتب الاجتماعية كما عرفتها لا تترك مجالاً لجدل كبير ،

ولكن الموقف يتغير بلا ريب اذا اعطينا لكلمة اجتماعي نبرتها الحديثة، ولعبارة اجتماعي في اذني المعنى البسيط الذي رأيته لها فيما سبق، ولكنه من الواجب ان اضيف اليوم ان كلمة اجتماعي اصبح لها في نفوس كثيرة معنى سياسي. فالوظيفة الاجتماعية للكاتب يمكن ان تفيد اذن الوظيفة المحتملة للكاتب في السياسة الاجتماعية. ومن الممكن اذا تمسكنا بدقة الالفاظ ان نجهض المناقشة، فالكاتب ليس له ولا يمكن ان تكون له وظيفة فيما نسميه السياسة الاجتماعية، ومن المنتظر في هيئة اجتماعية محكمة البناء ان يوكل الاجتماع والسياسة الى عناية اخصائيين يختارون في حذر من بين من انضجتهم التجارب. نعم، انه من الممكن ان يرى الكاتب ان عليه واجبات في هذا الميدان، بل ان يقبل بعض الاعباء ولكن وظيفته ليست في هذا».

جميل ولا شك ان يضع ديهاميل الحد بين العمل السياسي والعمل الكتابي، ولقد كان يستقيم في رأيي لو انه فرق بين الاجتماع والكتابة الأدبية، اي بين العمل الموقوت، والعمل الخالد.

على ان ديهاميل حين يقرر ان الاجتماع والسياسة في هيئة اجتماعية محكمة البناء من عمل اختصاصيين اكفاء، يتراجع في حذر بالغ.

ثم ... ثم ماذا؟

ثم ها هو ديهاميل يتراجع نهائياً. انه ينهي فصله بهذا: قال فيني .. «Alfred de Vigny» - وفيني هذا هو شاعر الفكرة بين الرومانتيكيين الافرنسيين - أدرسالتك حراً. ولست ارى موجباً لتغيير هذه الحكمة واضاف فيني: «لا قداسة في غير الوحدة» ألا فليهد هذا القول الجميل من بيننا اولئك الذين لا يقبلون ان يبحروا مغامرين على غير بينة ..»

والانصاف اقول : إن ديهاميل مدافع عن الأدب كغاية ، مؤيد لفكرة الحرية الادبية ، والانصاف ايضاً اذكر ان ديهاميل حين قال : فالكاتب اذن يؤدي في نظري وظيفة اجتماعية حين يعيننا على فهم العالم فهما اصح .

حين ذكر هذا ديهاميل كان ينظر للموضوع من ناحيته كفرد في هيئة اجتماعية ، وحينذاك يكون قوله صحيحاً . غير اني اخذت عليه قوله ، لانني افترضت وجوده وجود الاديب الفنان لا الانسان العادي .

وفي الكتاب بعد هذا كلام كثير من مثل ما قدمت ، وشروح كثيرة من مثل ما اسلفت ، وكلها يتصل بموضوع الأدب .

ولا احب ان اغادر الموضوع قبل ان احصر ما خلص لنا من مخض هذا الحديث . فقد علمنا :

١ ـ ان حكم الذائقة الأدبية تفضيل غامض مبهم .

٢ ـ ان النقد اختيار يرجع الى قواعد توضح الغاية وترشد الى الطريق .

٣ ـ لا بد من الذائقة والفهم ليتم الحكم ويكون صحيحاً .

٤ ـ الكتابة هي التي يجب ان تؤدي الحاجة وقد اسميناها كتابة واسماها كرمبي .. الأدب التطبيقي .

٥ ـ الأدب الخالص تعبير عن الانفعالات والاحاسيس العامة في الحياة .

٦ ـ التعبير وسيلة توصيل انفعال من نفس الى نفس .

٧ ـ مجرد وجود الانفعال مبرر كامل لوجوده .

٨ ـ لا بد من الحرية للادب . الحرية في الاخذ . والحرية في العطاء .

هذه عجالة آثرت فيها الايجاز ، ولعلي اوضح في كتابي « مناقشات في الادب » بعض ما غمض مستشهداً ، ممثلاً ، بما يثبت ، ويضع الحد ، او كما يقول ديهاميل ، يجهض المناقشة .

شيء من التاريخ وشيء من الحديث
في النكتة والنادرة

« حديث اذيع من محطة الاذاعة السورية بدمشق »

في بعض ما قرأت (١) ان يوحنا وهو من حواريي المسيح كان كثيراً ما يتخفف من اثقال التزمّن ، وزمانة الوقار ، ليدعب ويمزح ، فلا يجلس مجلساً من صحبه إلا ضحك واضحك .

وان شمعون ، وهو حواري ايضاً ، كان عبوساً جهماً ، أو هو كما يقول العرب : منضوح الوجه بالخل ، مسعوط الخيشوم بالخردل ، فلا يقعد مقعداً من قومه الا تحزن فأحزن ، وإلا بكى فاستبكى .

قال شمعون يوماً ليوحنا : ما اكثر ما تضحك وتفرح ، وتهش وتبش ، لكأنك قد فرغت من عملك فلا عمل !.

فقال يوحنا : وانت يا شمعون : ما اكثر ماتعبس وتجهم ، وتبكي وتحزن لكأنك قد يئست من ربك فلا أمل !

فأوحى الله من بعد الى عيسى بن مريم ان احب السيرتين اليّ

---

(١) القصة في كتاب « نهاية الارب » . وهي موضوعة . وقد رويتها لدلالتها لا لحقيقتها التاريخية .

سيرة يوحنا .

وفي الحديث : روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فان القلوب اذا كلّت عميت .

لا بأس اذن ، فليكن هذا المقال مزاجاً من الجد والهزل ، من العقل والعاطفة ، وليكن فيه من التسرية والترويح ما يرضي ، وحسبي الرضى ، فقد طالما رأيت العبرة في غيري ممن استزاد فعاد بالخفين ، وقد يكونا خفّين حقاً ، لا خفي المثل !

ولكلمة التسرية والترويح عندي معنى عميق ، ونتائج بعيدة ، فهما رصيد الحياة المذخور ، ومرحها المخزون يستعلن في الكائن الحي .

وبهذا كان للنادرة وهي من دوافع الفرح وبواعث المسرة مقامها الكبير ، واثرها البالغ في تنشيط الروح وبعث حيويتها الكامنة ، وفرحها الانساني العميق .

ولقد عرف العرب النادرة في مجالس اللهو وانديّة الحديث فعرفوا بها الحياة حين تشرق وتصفو ، وحين تعطف وتقبل .

قال هشام بن عبدالملك : قد أكلت الحلو والحامض ، حتى ما اجد لواحد منهما طعماً . وشممت الطيب حتى ما اجد له رائحة . واتيت النساء حتى ما ابالي امرأة اتيت أم حائطاً . فما وجدت ألذّ إلي من جليس تسقط بيني وبينه مئونة التحفظ .

وقد كثرت عندهم للنادرة الأسامي ، فهي أطروفة واضحوكة واملوحة . وهي نكتة ونادرة ، وهي دُعابة وهزالة وفكاهة . الى آخر ما في قواميس اللغة ، غير اني احسب ان في اطلاق هذه الاسماء وتعميمها جنوحاً وميلاً ، ذلك ان الحدود بينها اصبحت تلتقي في خطوط

كثيرة التعاريج والفجوات فهي لا تتوضح الا قليلاً .

ولعلي ادنو من التحقيق حين اعمد الى التقسيم والتفصيل فأقول ان النادرة تنشعب الى ثلاث شعب هي : النكتة ، النادرة ، الدعابة . واما بقية الأسماء فهي اميل الى مرادفات التوحيد منها الى مرادفات التنويع .

النكتة :

والنكتة اقصر عادة ، واكثر حرارة ، واشد اشراقاً ، واعنف تأثيراً واكثر نبضاً بالحياة بما فيها من عنصر المفاجأة والبديهية والتركيز واللمعان .

هذا اعرابي اشيب التحمّ يود شراء جارية هيفاء صبية فيقول لها: لا يُريبْك مني شيبي فانّ عندي قوة . فتجيبه الجارية اسرع ما تجيب : أكان يسرك ان عندك عجوزاً مغتلمة .

هذه نكتة ، بل لذعة اجزم ان قد بقي لها في اذن عجوزنا المتصابي دوي وطنين .

ولقد تجيء النكتة جواباً محكماً ، او تورية مضحكة او لمزة ساخرة او حيلة ماكرة ، او صورة هازئة ، او غمزة مراشة ، اومغالطة بارعة ، او مفارقة لاذعة ، او ما هو من ذلك بسبيل ، وهي في كل اشكالها انْ لم يتوفر لها المخالفة والخروج فلن تكون نكتة تؤدي مؤداها وتحقق موضعها .

والاغلب في النكتة انْ تقف عند الحد المادي للحياة ، فمن النادر انْ يستطيع صاحبها الغور بها او التحليق ، واعمق ما في النكتة ان

تجيء نقداً ساخراً .

هذا اعرابي يتزوج على كبر سنه فيقال له في هذا فيقول : ابادره باليتم قبل ان يبادرني بالعقوق .

ارأيت . انه يلمس المعنى بسخرية قاسية . ولكنه يومىء ولا يفصح . وهذا ادق ما وصلت اليه النكتة الفنية في العصر الحديث .

وذاك اعرابي يكتب الى عشيقته : عصمنا الله وإياك بالتقوى . فتجيبه والغيظ آخذ بكظمها : يا غليظ الطبع ان استجاب الله دعاءك لم نلتق ابداً .

وذاك آخر يُسأل عن جارية له يقال لها زهرة : أيسرك انك الخليفة وان زهرة ماتت ؟ فيجيب : لا والله تذهب الامة وتضيع الامّة . وهنا تنفرد اللغة في تهيئة الجو وخلق النكتة ، وهذا النوع محلي يفقد قيمته بالترجمة والنقل .

وممن شهر في التاريخ العربي بالنكتة ابو العيناء نديم المتوكل وغيره من خلفاء القرن الثالث للهجرة، وكان ابو العيناء هذا قبيحاً فكأنما سواه الله على عجل . خطب امرأة فاستقبحته ولم تكتم عنه فكتب اليها :

فان تنفري من قبسح وجهي فانني اريب اديب لا غبي ولا فدم

فأجابته : ليس لديوان الرسائل اريدك .

ومر ابو العيناء بدار عدوله فسأل : ما خبر ابي محمد . فقالوا : كما تحب . قال : فمالي لا اسمع الصياح والعويل .

ووقف على ابي العيناء شخص فلما احس به قال : من ؟ قال الرجل : من بني آدم . قال : مرحباً بك . اطال الله بقاءك . لقد كنت اظن ان

هذا النسل قد انقرض .

النادرة :

قلت فيما اسلفت من الحديث ان عناصر النكتة هي المفاجـــأة والقصر والبدهية ، والتركيز واللمعان على ان يتوفر لها الخروج والمخالفة اي الشذوذ والانحراف . ولا يعني هذا انها عناصر لا تجتمع في النادرة والدعابة فقد يجتمع بعضها ، عـــدا القصر ، إلا ان امتـداد النادرة واسلوبها الحكائي ومجرى الحادثة فيها وفتور الدعابة وعدم توفر الاشراق لها يجعل لها جواً آخر فينزلها منزلة اخرى .

ولقد تنتهي النادرة بنكتة . مثال ذلك ما رووه ان رجلاً احضر امرأته الى قاض من قضاة البصرة يقاضيها وكانت حسنة المنتقب قبيحة المسفر ، فمال القاضي على زوجها وقد وقعت من نفسه تحت النقـاب موقع ميل فقال : يعمد احدكم الى المرأة الكريمـة فيتزوجها ثم يسيء اليها . ففطن الرجل الى ميله ولحظـــه فقال : أصلح الله القاضي قد شككت في انها امرأتي فمرها تسفر عن وجهـا . فقال القاضي : اسفري يا حسناء . فسفرت عن وجه لا تقع العـــين على اقبح منه فصرخ القاضي وقد تعوذ : قومي عليك اللعنة . كلامُ مظلومٍ ووجه ظالم.

وهذا عدي بن ارطاة يأتي شريحاً القاضي وامرأة له من اهل الكوفة يخاصمها اليه . قال عـدي : اني امرؤ من اهل الشام . قال شريح : بعيد الدار . قال : إني قدمت العراق . قال : خير مقدم ، قال : وتزوجت هذه المرأة . قال : بالرفاء . قال : وقد ولدت لي غلاماً قال : ليهنك الفارس . قال : وقد اردت ان انقلهـا الى داري . قال : المرء احق بأهله . قال : كنت شرطت لها دارها . قال : الشرط أملك .

قال : فاقض بيننا . قال : قد قضيت . قال : فعلى من ؟ قال شريح وقد تضيّق : على ابن امك .

وهذا اشعب يقال له : يا اشعب . قد لقيت رجالاً من اصحاب النبي فلو حفظت منهم احاديث تتحدث بها . فقال اشعب : انا اعلم الناس بالحديث . قالوا فحدثنا جزاك الله . قال : حدثني عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ان محمداً قال : خلتان لا تجتمعان في مؤمن إلا دخل الجنة . ثم سكت اشعب . فقالوا له : وما الخلتان ؟ قال أشعب وقدحك رأسه : نسي عكرمة احداهما ونسيت انا الاخرى .

الدعابة

ولقد يتساءل بعد هذا متسائل عن مكان الدعابة فأقول انه المكان الثالث والمنزلة الأخيرة . ذلك انها اقل حرارة ، بل لعلها تبدو في الكثير منها فاترة ، فلا هي بالباردة فتبوخ ، ولا بالحارة فتضحك وتضيء جوانب الحزن .

مثال ذلك :

قيل ان اعرابياً دخل على يزيد بن المهلب وهو على فراشه والناس من حوله فقال : كيف اصبح الأمير ؟ قال يزيد ، كما تحب يا أخا العرب . فقال الاعرابي ، لو كنت كما احب كنت انت مكاني وانا مكانك

قدمت ان العرب عرفوا النكتة والنادرة والدعابة ، وقد كان العصر العباسي اطبع العصور العربية على مراسها جميعاً وتذليل عصيها بما اباح له السلطان من اضراب العبث والوان المجانة وما دخل في ذلك على المجالس من لهو وهزل برىء وخليع .

وقد تميز كثيرون في هذه الحلبة وكانوا فرسانها منهم اشعب بن جبير وكنتيه ابو العلاء ، وابو العيناء ، وقد تقدم ذكرهما . ومنهم ابراهيم ابن سيابة . ومطيع بن اياس الكناني ، والأقيشير ، وابو الشيص ، وابن الجصاص . وغيرهم كثير .

وقد اجاد هؤلاء واضرابهم قص النادرة جودة معجزة ، وبرعوا رمي النكتة عفو الخاطر ووحي المقام برعاً يضحك المصلوب ، ولو لا ضيق المجال وسرعة المقال لأوردت نتفاً كثيرة لكل منهم .

على انهم كانوا كثيراً ما يسلطون ويلذعون . ولقد يسفون فينزلون الى المجون والتهجين وقد ينزلون وينزلون حتى تكون النكتة او النادرة او الدعابة سوقية مكشوفة لفظاً وغاية .

وهنا اضرب صفحاً عن الرواية ، فمن رغب فهـــذي كتب الأدب القديمة غاصة بها حافلة ، وحسبي من ذلك ان اكون دليلاً .

على ان من نكاتهم هذه مما لا اتحرج من روايتها ما يرتفع لفظه وان بقي المعنى لمس المجانة .

فهذه جارية تسأل ، أبكر انت ؟ فتجيب ، اعوذ بالله من الكساد . ارأيت ، انها مجانة تسوغها الاذن بعض السوغ .

وهذه جارية اخرى يقول لها المتوكل وهو يستعرض الجواري ، ابكر انت ام ايش ، فتقول له ، انا ايش يا امير المؤمنين .

نكتة ثانية مقبولة تسيغها العامة ولا يتنكر لها الخاصة .

وهذا عاشق عذري يكتب الى حبيبته ، مري خيالك ان يلم بي ، فتجيبه ، ابعث اليّ بدينارين حتى آتيك بنفسي .

وثان يكتب الى حبيبته ، وضعت على الثرى خدي لترضي ، فتجيبه زن عشرة دراهم وضع خدك على خدي .

وهذا ابو العيناء يقول لابن ثوابة ، بلغني ما خاطبت به ابا الصقر ، وما منعه من استقصاء الجواب الا انه لم ير عرضاً فيمضغه ولا مجداً فيهدمه.

فقال ابن ثوابة ، ما انت والكلام يا مكدّمي (١) فقال ابو العيناء ، لا ينكر على ابن ثمانين قد ذهب بصره وجفاه سلطانه ان يعول على اخوانه . ثم رماه بكلام فاحش ، فقال له ابن ثوابة ، الساعة آمر احد غلماني بك، فقال ابو العيناء ، ايهما ؟ الذي اذا خلوت ركب ، ام الذي اذا ركبت خلا ؟ .

فانظر ، انها رمية الى هدف. انه الخاش منزه عن صراحة الفحش رماه به ، ورمى زوجه.. الى غير ذلك مما تغص به كتب الأدب القديمة ، وهو كثير من نكت وطرف واضاحيك ونوادر تستحق بعض العناية فانها ثروة ادبية ، فضلاً عن انها تشبع الحاجة فترفه عن القلب المائج ، وتسري عن النفس المحزونة المكروبة .

(١) من يطلب العيش من الناس .

مأساة اللغة العربية

١

قبل البحث :

هذا الموضوع ايها القارىء عرض لمأساة اللغة العربية كما نعانيها اليوم ، وليس حلاً لمشكلتها .

صحيح انني اقترحت بعض الاصلاحات ، وقدمت لغيري اقتراحات اخرى . ولكن المشكلة - في رأيي - لا يحلها اقتراح في ناحية من نواحي الموضوع ، فهي كالعنكبوت منسوج الخيوط في كل زاوية من زوايا البيت العتيق المهجور ، وهي بعد في حاجـــة الى قلب وتغيير شامل ، ومن الاساس .

ولقد بعثني الى الكتابة فيه انني كنت اقرأ اقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي عضو المجمع العلمي ، باستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني مع بعض التعديل (١) وفي نفس اليوم قرأت مقالاً للاستاذ احمد جاد المولى عضو المجمع ايضاً ، في مجلة المجمع (٢) عن اللغة اسميته

(١) الحروف اللاتينية للكتابة العربية

(٢) الجزء الثالث سنة ١٩٣٦ .

لفوري ، لعب اللغة العربية ولاعبوها .

واقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي ومقال الاستاذ جاد المولى يمثلان عندي الاتجاهين الرئيسيين في المشكلة وهما : انكماش المحافظة ، وانطلاق الفوضى . وفي هذا الانكماش المحافظ ، وذلك الانطلاق الفوضي تتمثل مأساة اللغة العربية .

فالاستاذ جاد المولى رجل منكمش متزمت لا يبالي ما يسيء الى اللغة بتزمته وانكماشه . والاستاذ عبدالعزيز فهمي رجل منطلق ثائر لا يبالي ما يجرف في طريق ثورته وانطلاقه من اساس اللغة وجوهرها .

وسنرى في البحث خطورة الاتجاهين ، وبعدهما عن حل المشكلة حلاً يقره منطق اللغة وفلسفتها .

٢

رجعة الى التاريخ

وسنرجع رجعة الى التاريخ لنتعرف منه قيمة اللغة في الحياة العربية في مختلف ادوارها ، وهل كانت تعتبر غاية ام وسيلة .

يروي البلاذري وابن قتيبة ان عبدالملك بن مروان كان يحذر ابناءه من اللحن ، فان اللحن في منطق الشريف اقبح من آثار الجدري في الوجه ، واقبح من الشق في ثوب نفيس وكان عبدالملك لا يستعمل صبياً ملحوناً حتى في المزاح وقد تأدب ابنه سليمان ادبه ، وكان كما يروي ياقوت يحسن الاشادة بقيمة الجمال اللغوي ، وكذلك عمر بن عبدالعزيز فقد كان لا يطيق ان يسمع في محيطه خطأ لغوياً .

واشتهر الحجاج بمثل هذا . ويروي ياقوت ان الحجاج اراد كثير

ابن كثير البصري لعمل من الأعمال ولم يستطع كثير التهرب منه فقد أصر الحجاج عليه، واخيراً عمد الى حيلة ما كرة تخلص بها من الحجاج اذ لحن لحناً فظيعاً امامه في القواعد فأعفاه .

ويروي ايضاً ياقوت والقلقشندي والسيوطي ان كاتب اسحاق بن ابرهيم المصعبي كتب الى الخليفة المأمون كتاباً فارتكب فيه هذه الخطيئة : وهذا المال مالاً يجب على فلان . فخط المأمون على كلمة : مالاً وكتب في حاشية الكتاب : أتكاتبني بلحن يا ابا اسحق . وروى ياقوت عن اسحاق هذا انه حين كان يشغل منصب الحاكم لمدينة بغداد وقع منه لحن في حضرة المأمون فاضطر الى دراسة القواعد على هشام ابن معاوية .

ولم يقتصر الأمر في العناية باللغة هذا الاعتناء الشديد على الحكام والولاة بل تعداه الى الشعراء والرواة ولم يقتصر ايضاً على العرب الخلص فقد امتد منهم الى المسلمين غير العرب من الموالي . فهذا الحسن البصري (١) كما يروي الجاحظ في بيانه قد بلغ درجة في اللغة حملت رجلا ضليعاً كأبي عمرو بن العلاء على وضعه في مرتبة الحجاج .

وهذا الفتح بن خاقان (٢) يبلغ درجة في ثقافته اللغوية تجعله ـ الى جانب مؤهلاته ـ يتمتع بنفوذ كبير فيصبح مستشاراً للمتوكل (٣) .

وتحضرني هنا قصة الاصمعي وبيت ذي الرمة . فقد كان الأصمعي ينكر ان يقال في لغة العرب مالح ويقول انما هو ملح ، وان مالح هذه عامية ، فلما استشهد له بعضهم ببيت لذي الرمة قال : « ان ذا الرمة هذا

---

(١) هو ابن احد اسارى الحرب من مدينة ميسان

(٢) احد ابناء الاتراك

(٣) وقد قتل معه عام ٢٤٧ هـ

قد بات في حوانيت البقالين بالبصرة زمانا . »

يريد الاصمعي انه اخذها منهم لأن لغتهم عامية مزالة عن سننها الفصيح مصروفة الى وجهها التجاري والملح مما يبيعه البقالون بالبصرة .

٣

الجرجاني وابن خلدون

وارى اننا اذا عمدنا الى تفصيل امر العناية باللغة في العصور العربية كلها فسيطول بنا الشرح ويمتد المقال ، ونحن في عجالة يحمد معها الايجاز ، لذلك أقف عند رجلين اثنين اولهما الجرجاني في كتابة الوساطة ، وثانيهما ابن خلدون في مقدمته ، وسيعطينا الأول دليلا اقوى على قيمة اللغة فهو رجل ناقد . وسينير ثانيهما الموضوع انارة اوضح لأنه يفرد للغة فصلا خاصاً .

في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه يعقد الجرجاني فصلا بعنوان اغاليط الشعراء . يقول الجرجاني : ودونك هذه الدواوين الجاهلية والاسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت او اكثر لا يمكن لكاتب القدح فيه . اما في لفظه ونظمه او ترتيبه وتقسيمه او معناه او اعرابه ... » ثم يستشهد الجرجاني بقول امرىء القيس :

أيا راكباً بلغَ اخواننا من كان من كندة او وائل

فنصب بلغ . وقوله :

فاليوم اشربْ غير مستحقب اثماً من الله ولا واغل

فسكن اشرب . وقول الأسدي :

كنا نرقعها وقد مزقت واتسع الخرق على الراقع

فسكن رقعتها ...

وعاد الجرجاني الى الاغاليط في المعاني فقال: كقول امرىء القيس :

واركب في الروع خيفانة كسا وجهها شعر منتشر

وهذا عيب في الخيل . وقول زهير

يخرجن من شربات ماؤها طحل على الجذوع يخفن الغم والغرقا

والضفادع لا تخاف شيئاً من ذلك

وقول سلمة بن الخرشب ،

اذا كان الحزام لقصر بها اماماً حيث يمتسك البريم

يقول : ان الحزام يقرب في جولانه اذا اكثر من عدوه فيصير امام القصريين . قال الأصمعي : اخطأ في الوصف ، لأن خير جري الاناث الخضوع ، وانما يختار الاشراف في جري الذكور ، فاذا اختضعت تقدم الحزام كما قال بشر بن ابي خازم :

نسوف للحزام بمرفقيها يسد خواء طبيتيها الغبار

٤

اما ابن خلدون فانه يعالج موضوع اللغة من وجه آخر فيلجه من غير باب النقد ، فهو يفرد فصلاً خاصاً كما ذكرنا للتحدث عن اللغة بعنوان : اللغة ملكة صناعية .

يقول ابن خلدون ،

اعلم ان اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في

اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها ، وقصورها ، بحسب تمام الملكة او نقصانها ، وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة . »

هنا يعتبر ابن خلدون اللغة في تعريفه لها وسيلة للتعبير . ولكنه سرعان ما يقع ويعتبرها غاية ، لأن مفهوم اللغة لم يكن واضحاً عنده ، أهو وسيلة ام غاية . فهو يقول في مكان آخر ،

« اعلم ان صناعة الكلام نظماً ونثراً انما هي في الألفاظ لا في المعاني ، وانما المعاني تبع لها ، وهي اصل » .

ثم يتابع ابن خلدون كلامه ، فيقول ، « وتأليف الكلام للعبارة هو المحتاج للصناعة كما قلناه ، وهو بمثابة القوالب للمعاني . »

وقول ابن خلدون ، القوالب للمعاني اعتبار واضح للغة وسيلة لا غاية .

ثم يأخذ ابن خلدون من جديد في التعثر ، والمغالطة ، مثبتاً غاية اللغة فيقول : فكما ان الاوانى التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الاواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء . »

والمغالطة هنا ان ابن خلدون يعتبر المعاني واحدة كالماء ، واللغة المعبرة كالأواني المختلفة من ذهب وفضة وصدف وزجاج وخزف ، فاللغة اذن هي الأساس ، اي الغاية .

قدمت هذه الرجعة الخاطفة الى التاريخ ، وشيئاً عن اللغة والنقد عند الجرجاني ، واللغة ملكة صناعية عنـــد ابن خلدون لأخلص الى الحقيقة التاريخية للغة العربية وهي انها كانت تعتبر ـ منذ انقرر الاسلام مصيرها حتى انحطاط الدولة العربية على يد الاتراك ـ غاية لا وسيلة . ولهذه الحقيقة التاريخية قيمة كبيرة في نظري فهي تفسر سبب بقـاء اللغة العربية الفصحى اليوم على ما كانت عليه دون اي تطور يذكر . وهي تفسر ايضاً السبب في عدم الجرأة على تطويرها ، لان تلك العناية التي لاقتها في تاريخها الطويل . واعتبارها غاية ، زد على ذلك انها لغة القرآن وقريش ، احاطها بنوع من التقديس والوثنية اصبح من المتعذر معه ان يجرؤ انسان على اختراق حرمها .

على اننا نثبت حقيقة اخرى الى جانب هـذه الحقيقة التاريخية ، وهي ان اللغة العربية مدينة ببقائها لها ، اي ان اعتبارها غاية والتقديس الوثني الذي احيطت به هو الذي حفظها من الانقراض منـذ انحطاط الدولة العربية حتى اليوم .

اللغة وسيلة ، غايتها

اثبتنا ان اللغة العربية كانت تعتبر في كل ادوارها غاية . او ان الاعتناء الشديد بها ، وتقديسها قد وضعها هذا الموضع واحلها هذا المكان فهل اللغة في حقيقتها غاية ام وسيلة ؟ وما قيمتها ؟ وما غايتها ؟

اللغة وسيلة تفكير وتعبير وسلوك . فنحن نفكر باللغة ونحن نعبر في حدودها ، ثم نحن نعمل ونتحرك ونعيش بها . فهي التي تعين لنـا سلوكنا لأننا ننفعل ونفكر بكلماتها .

وقيمة اللغة انها حددت الحياة . واوجدت التاريخ والجغرافيا ، ونقلت لنا اختبارات غيرنا في القديم والحاضر ، وجعلتنا ننتفع بها فزادت في امكانية التطور ودفعت بعجلته الى الأمام دفعات .

واللغة ثمرة من ثمرات المجتمع تتطور بتطوره . والمجتمع ثمرة من ثمراتها يتطور بتطورها . فهي فاعلة منفعلة .

هي منفعلة لأنها كأية وسيلة اخرى من وسائل الحياة تخضعها ـ اي الحياة ـ لقانون التطور . والكلمة التي تعيش اليوم قد لا تعيش غداً والكلمة التي عاشت امس قد لا تعيش اليوم . فكلمة الخنشليل مثلاً لم يعد يستعملها انسان ، وكذلك العسلوج وطلطل (١) وغيرها كثير .

الحياة اذن تلقي رداءها على الكلمات كما تلقيه على الانسان ، وتخلعه عنها كما تخلعه .

واللغة فاعلة ، لأن المجتمع يتسلط على الفرد منذ ان يولد باللغة ، ولما كان السلوك هو البيئة ، وكان التعبير عن السلوك تعبيراً عن البيئة فالانسان ـ وهو ابن بيئته ـ ابن لغة تلك البيئة .

ولا شك ان للكلمات ايحاء وتوجيهاً . فايحاء كلمات : احسان ، نبل خير ، كرم ، مروءة ، خلق ... غير ايحاء كلمات : دم ، ثأر ، بخل ، انتهاز ... وتوجيهها غير توجيهها ، والايحاء والتوجيه ينتهيان الى فرض مقاييس وقيم ومفاهيم اجتماعية وخلقية وروحية معينة . . اي الى فرض سلوك معين . ولذلك فحين تعيش لغة امة في ماضيها لا حاضرها تعيش الأمة نفسها في ماضيها بمقاييسه ومفاهيمه وقيمه ، وتنقطع عن حاضر الحياة وواقعها فتنقطع الصلة بينها وبين الحياة . وهذا جانب من جوانب المأساة والمشكلة .

---

(١) الخنشليل : السيف . العسلوج : العصا . طلطل : حرك .

مأساة العربية، مشاكلها

على ان مأساة اللغة العربية تنحصر في مظهرين رئيسيين تتفرع عنهما جزئيات لا سبيل الى حصرها، واول هذين المظهرين، الاتجاهان اللذان اسلفنا الحديث عنهما وهما: انكماش المحافظة، وانطلاق الفوضى، فالاول يحجّر اللغة، والثاني ينسفها.

وثانيهما: اننا ما زلنا نعتبر اللغة غاية لا وسيلة.

ولقد عانت اللغة من بقاء هذا الاعتبار لها، كثيراً، فقد بقيت حبيسة قفص الحياة العربيـة الاولى ولم تستطع الخروج الى النور، فبقي - بهذا - الجيل العربي كله حبيس هذا القفص ولم يستطع تمثل الحياة في القرن العشرين تمثلاً كاملاً، لأن لغته القديمة وما تفرضه عليه، وما توحيه له، وما توجهه اليه، تحول بينه وبين الانطلاق.

وسنحاول الآن ان ندرس بعض مشاكل العربية على سبيل المثال لا الحصر، وعلى ضوء مفهوم اللغة وحقيقتها، وسنحـاول تمثيل المأساة خلال هذه الدراسة وبعدها.

مشكلة الخط

ومن اولى المشاكل التي تعترض قارئ العربية، الخط. لأن اشكال الحروف عندنا واوضاعها المختلفة تخلق الكثير من الالتبـاس. فلدينا مثلا تسع مجموعات من الحروف تؤلف عشرين حرفاً من حروف اللغة العربية لا يفرق بين حروف المجموعة الواحـدة سوى النقطة. وهي: ب ت ث. ج ح خ. د ذ. ر ز. س ش. ص ض. ط ظ. ع غ.

ف ق . ولدينا حروف تتشابه حين تكون وسط الكلمة : ب . ت . ث ، ن . ي . فهي جميعاً تصبح نتوءاً واحـــداً يميز الحرف فيه عن الحرف النقطة فقط : ب . ت . ث . ن . ي .

وللنقطة هذه طرفة لا أجد بأساً من روايتها هنا ، فقد روي ان احد السلاطين أرسل لعامل من عمـــاله على الأقاليم ان ارسل الف دبوس (١) فزرقت ذبابة نقطة الى جانب نقطة الباء ! . وأرسل العامل ـ تنفيذاً لأمر الذبابة ـ الف رجل انتقاهم من أوباش الناس وحثالتهم ، فثار السلطـــان ، ثم أمر ببناء مدينة لهم يحشرون فيها مع عامله ، ويتناسلون .

ويخيّل اليّ ان واضع الطرفة اراد ان يشير من طرف خفي الى هذه المشكلة ، اي مشكلة الخط العربي وما يمكن ان يحصل فيه من التباس .

وثمّ اشكال أخر في الخط العربي هي الحركات والضوابط . فما لم تكن قد قضيت عمرك في دراسة النحو والصرف ، وما لم تكن قد فتحت باب اسرارهما المقدس ، وعلمت ما قاله القلقشندي وابن مالك ، والأصمعي ، وسيبويه ، والكسائي ، والفراهيدي وغيرهم ، فلن تستطيع القراءة الصحيحة التامة .

وقد قام البعض بمحاولات لاصلاح الخط فقدم الى مجمع فؤاد للغة العربية بالقاهرة اقتراحات كثيرة (٢) رفضتها اللجنة جميعاً .

ثم وضع الأستاذ علي الجارم اقتراحاً بمشروع يقوم على أساس

---

(١) الدبوس : آلة من آلات الحرب القديمة

(٢) انظر بعضها في صفحة الرسوم الخاصة رقم : ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ .

استبقاء رسم الكلمات العربية كما هو بحروفه المعروفة ، على ان تكمل الحروف ذاتها في الكلمة التي هي منها بزوائد تدل على الكسر والضم والسكون والتنوين البسيط . وان يلصق بالشدة المنونة حركاتها الثلاث على ان يعتبر كل حرف لا تزاد فيه علامة مفتوحاً . وفي مشروع الاستاذ الجارم استثناءات لبعض الأحوال (١) وقد ارفق الاستاذ الجارم مشروعه بتقرير يقول فيه :

« فان قالوا ان الشكل يسد هذه الحاجة ويذلل تلك الصعوبة ، قلنا ان الشكل لا ينقذ من الخطأ بل انه قد يكون مدعاة للخطأ ، وكيف تستطيع العين ان تدرك الحروف وما تحتها وما فوقها في آن واحد مع الضبط والدقة ثم تنقله الى اعصاب المخ فتنقله هذه الى اعصاب اللسان سليماً صحيحاً ؟ . لقد جربنا في مدارسنا ان التلاميذ يخطئون في قراءة المشكول خطأهم في قراءة غير المشكول . جربنا ان الطالب المثقف لا يستطيع قراءة القرآن الكريم وهو مشكول على ادق ما يكون الشكل واحكم ما يكون الضبط . ثم ان الشكل كثيراً ما ينقل عن مواضعه عند الطبع ، فتنقل حركة المفتوح الى المضموم ، وتنقل الحركة من حرف يجب شكله الى حرف لا يتطلب لضبطه شكلاً . واخرى ان الشكل عمل شاق جداً في الطباعة يحتاج الى دقة والى زمن والى اجر مضاعف ، لذلك قل من الكتب المشكول ورأى اصحاب الصحف والمجلات ان الشكل صعوبة مادية لا تذلل » .

مشكلة الطباعة

وتتفرع عن مشكلة الخط العربي مشكلة اخرى رئيسية ، وهي

---

(١) الصفحة نفسها رقم : ٦ .

في نظري الوحيدة الجديرة بالدرس ومحاولة ايجاد حل لها . هذه المشكلة هي مشكلة الطباعة . فالحرف عندنا يختلف بحسب موقعه . فهو في اول الكلمة غيره في وسطها ، وغيره في آخرها . وبحسبي ان اقدم قائمة بأقل الحروف التي يتوجب استعمالها ـ دون الشكل ـ في المطبعة ليعرف القارىء ضخامة المشكلة :

ا . ـا	ط . ـط . طـ . ظ .
ب . ـب . بـ . ب .	ظ . ـظ . ظـ . ظ .
ت . ـت . تـ . ت .	ع . ـع . عـ . ع .
ث . ـث . ثـ . ث .	غ . ـغ . غـ . غ .
ج . ـج . جـ . ج .	ف . ـف . فـ . ف .
ح . ـح . حـ . ح .	ق . ـق . قـ . ق .
خ . ـخ . خـ . خ .	ك . ـك . كـ . ك .
د . ـد .	ل . ـل . لـ . ل .
ذ . ـذ .	م . ـم . مـ . م .
ر . ـر .	ن . ـن . نـ . ن .
ز . ـز .	ه . ـه . هـ . ه . ة .
س . ـس . سـ . س .	و . ـو . لو . لو .
ش . ـش . شـ . ش .	لا . ـلا . لي . لي .
ص . ـص . صـ . ص .	ي . ـي . يـ . ي ء
ض . ـض . ضـ . ض .	

فاذا أضفنا الى هذه القائمة الحروف المشكلة وعلمنا ان كل حرف يحتاج الى عشرة اشكال جديدة للكسرة والضمة والفتحة والسكون ، ثم للكسرة مع الشدة ، والفتحة مع الشدة ، والضمة مع الشدة ، ثم لها

جميعاً مع التنوين : بٌ . بٍ . باً . عرفنا الى اي رقم يرتفع عدد حروف المطبعة العربية التي يتوجب استعمالها لتخرج كتاباً او صحيفة لا يخطئ قارئها .

ومن تعدد الحروف تأتي صعوبة الطباعة ، وغلاؤها ، ويتأثر بالتالي انتشار المطبوعات ، اي الثقافة ، الانتشار الكافي بين كل طبقات الشعب .

وقد وضع الاستاذ نصري خطار بلبنان ، حروفاً ابجدية للطباعة لا تتجاوز الـ ٣٢ حرفاً ارى انها ان لم تصلح لحل المشكلة حلاً نهائياً فقد فتحت باب الحل على مصراعيه (١) .

مشروع عبد العزيز فهمي

قدمت في مطلع البحث أن ما اثارني الى كتابة هذا الموضوع اقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي ، ومقال الاستاذ جاد المولى . وذكرت ان اقتراح الاستاذ فهمي يمثل عندي انطلاق الفوضى .

ويقع الاقتراح في خمسين صفحة ، سأول تلخيصه للقارئ موجزاً ما استطعت .

بعد أن قدم لاقتراحه انتقل الى الموضوع فذكر كيف ان الرسم اهم اسباب مرض العربية وقال انه رسم لا يتيسر معه قراءتها قراءة مسترسلة مضبوطة حتى لخير المتعلمين وذلك لخلوه من حروف الحركات . وقد عالج اسلافنا الاستعاضة عن حروف الحركات بالشكلات للفتح والضم والكسر والسكون والمد والشد والتنوين . ولكن ظهر

---

(١) انظر الرسم رقم : ٨ .

في العمل ان هـــذه الوسيلة لا فائدة فيها ، بل هي مجلبة لكثير من الأضرار ، لأن الشكلة المنفصلة عن الحرف كثيراً ما تقع على حرف قبله او بعده ....»

« وانت عليم بأن عدم وجود عـــلامات الحركات ولا حروف الحركات يجعل الكلمة مركبة من حروف اصوات جوهرية لا تعرف حركاتها بادىء الرأي فيصحفها القارىء غير المتمرن على جميع اوضاع الحركات التي تحتملها الحروف . اما المتمرن فانه يعرض نفسه لحول عينيه اذ هو لا يقع بصره على الكلمة الا ويحيله فيما بعدها من الكلمات حتى يعرف معنى تلك الكلمة أهي اسم او فعل او حرف وما وظيفتهـا في الجملة وما تستحقه من البناء او حركات الاعراب ، وهذه المشقة تحملني على الاعتقاد بان اللغة العربية من اسباب تأخر الشرقيين ، لأن قواعدها عسيرة ورسمها مضلل ، فمن تحدّثُ في نفسه فكرة مفيدة للناس ويحب نشرها فيهم بالكتابة او الخطاب يأخـــذه خوف انتقاد عبارته فيكتم فكرته في نفسه ويميتها او هو ينشرها بلغة من اللغات الأجنبية التي اصبحت عند كثير من الشرقيين أيسر عليهم من لغتهم العربية . »

ويضرب بعد ذلك الاستاذ عبدالعزيز فهمي الامثال فيذكر كلمة قد . ويقول : انها تصور لك حرف التحقيق وتصور لك قامة الانسان « قدٌّ » . وتصور لك فعلاً ماضياً « قـــدَّ » بمعنى قطع . وماضياً مبنياً للمجهول « قُدَّ » أي قُطع ، وفعل امر بمعنى اقطع « قُدَّ » . وهي صيغة مشتركة في النطق مع المبني المجهول وفعل أمر آخر « قُدْ » ولا ادري كم مدلولاً آخر تصوره او لا تصوره (١) .

ويقول بعد ذلك : إذن فأول واجب على اهل اللغة العربية هو

(١) يعتبر ذلك الدكتور علي عبدالواحد وافي الأستاذ بكلية الآداب في كتابه فقه اللغة من ميزات العربية وامتيازها .

ان يبحثوا عن الطريقة التي تيسر لهم كتابة هذه اللغـــة على وجه لا تحتمل فيه الكلمة الا صورة واحدة من صور الاداء ، ولقد علمت ان تشكيل الضمائر ضار ، فـلا بد من التفكير في طريقـة اخرى تؤدي المـراد .

خطر بفكر احد زملائنا ان يعالج المسألة لا من جهة الرسم ، بل من جهة الاعراب وذلك بحذف حركاته وتسكين اواخر الكلمات وكان من السهل اجابته الى فكرته لأن موضوعها ليس غريباً عن اهل العربية ، بل هو يوافق بعض لهجاتها القديمة وقد قرئت آية : ويضيق صدري ولا ينطلق لساني . مثلا من القرآن الشريف هكذا : ويضيقْ صدري ولا ينطلقْ لساني . بتسكين القاف في الكلمتين .

غير ان الذي يمنع قبول هذه الفكرة انها اذا تحققت عمـــلا اخلت اخلالاً كلياً بكل ما وصل الينا من شعر الجاهليين وشعر المسلمين وغير المسلمين الى اليوم . »

ومن جهة اخرى فان هذا العلاج اذا كان يزيل صعوبة الاعراب فانه لا يفيد شيئاً في الصعوبة الآتية من تغيير الصيغ والصور الكلمة الواحدة فقد رأيت ان لفظ « قد » له صور مختلفة ومهما سكنت آخره فلا يفيدك ذلك شيئاً في بيان تلك الصور المختلفة وفهم مدلولها » .

ثم يقول الاستاذ فهمي : لقد فكرت في هذا الموضوع من زمن طويل فلم يهدني التفكير إلا الى طريقـــة واحدة هي اتخاذ الحروف اللاتينية وما فيها من حروف الحركات بدل حروف العربية ، كما فعلت تركيـا .

الافتراح :

ان في اللغة العربية ثلاث عشرة نغمة صوت جوهرية (١) كلها خاصة بها الا ما ندر . وكل منها يؤديه حرف هجائي مفرد ولا تؤدي حروف الهجاء اللاتينية المفردة شيئاً منها ، وهي نغمات : الهمزة ، الثاء الجيم ، الحاء ، الخاء ، الذال ، الصاد ، الضاد ، الطاء ، الظاء ، العين ، الغين ، القاف .

اما حرف الهمزة فانه انما ينطق به عرضاً في اللغات اللاتينية الحروف . في اول كل كلمة مبدوءة بحرف من حروف الحركة . وهو عرض ملازم ، لأن حرف الحركة انما يشخص نبرة هوائية مطلقة خالية عن التركز والانضباط فهي من قبيل النفس الخارج من الرئتين لا تكيفه الأحبال الصوتية ولا اعضاء الفم والحلق التي تضبط مخارج النغمات الصوتية الجوهرية وتميز انواعها . ولذلك لا تجد عندهم حرفاً خاصاً يشخّص هذه الهمزة العرضية . على انه لا يهمنا ان تكون الهمزة عندهم عرضاً ملازماً ... لكن الهمزة في العربية حرف جوهري أصيل تجب مبدئياً كتابته برسمه الخاص ، سواء اكان ملفوظاً به في اول الكلمة ام كان ملفوظاً به في وسطها او في آخرها . وفي اللغة الانكليزية نغمتا الثاء والذال ولكن الانكليز يؤدونهما بمركب مزجي مدغم مكوّن من حرفي « T h » وفي الألمانية نغمة الخاء ولكن الألمان يدلون عليها بمركب مزجي مدغم مكون من حرفي « c h » وفي كل اللغات اللاتينية الحروف توجد نغمة الشين ولكن ليس هناك حرف مفرد يدل عليها . والذي عنّ لي بعد طول التفكير ان الهمزة والجيم والحاء والخاء والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين هذه الأحرف

---

(١) انظر الرسم رقم : ٩

العشرة يجب ان تؤدي بذات رسمها العربي .

ومن المصادفات ان هذا الرسم يتمشى مع الحروف اللاتينية ويتسق معها كل الاتساق (١) وارى ان يستعمل حرف « K » عندنا للدلالة على الكاف وان يستعمل حرف « q » منفرداً ـ وهو لا يستعمل في كل اللغات الا مصحوباً بحرف « u » ـ للدلالة على القاف .

واستلفت النظر الى ان نغمة حرف الجيم عندنا معطشة في الفصحى وهي نغمة قد يقرب من تأديتها من بين الأحرف اللاتينية حرف « j » عند الفرنسيين والانكليز دائماً كما يؤديها حرف « g » في بعض الصور وفي صورة اخرى لا يؤدي حرف « g » الا نغمة صامتة كنغمة القاف ـ التي يقلبها المصريون جيماً صامتة ـ فمن الخير استبعاد هذين الحرفين معاً .

أولاً ـ لأن نغمة الجيم عندنا هي في الحقيقة نغمة « d j » وثانياً ـ لأن حرف « g » رأسه وجزء من ساقه تشتبه بحرف « q » الذي اخترناه للقاف فاستبعاده يقي من اللبس .

واما حرف الواو فقد اخترت له حرف « W » ويكون ترتيب احرف الهجاء على ما هي عليه عندنا الآن تماماً وبأسمائها العربية من الالف الى الياء مع ملاحظة ان الالف هو صوت مد ، اي حرف حركة مستطيلة النبرة تنتهي نبرته بالسكون ، ولهذا يجب ان توضع علامة مميزة ـ كما في الرسم ـ .

بعد هذه التسعة والعشرين حرفاً العربية الاساسية توضع للحركة حروف ثلاثة من بين حروف الحركة اللاتينية هي : « a » خالية من الشرطة للفتحة و « e » للضمة و « u » أو « i » للكسرة » .

---

(١) انظر الرسم رقم : ٩

هذا موجز دقيق لاقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي لخصته للقارئ تلخيصاً وافياً ليرى ما يفسف الاستاذ ـ كما اسلفت ـ في طريق ثورته وانطلاقه من أساس اللغة وجوهرها .

فالاقتراح يخلق مشكلتين رئيسيتين أولاهما : التراث العربي ماذا نفعل به ؟ وقد حلها الاستاذ ببضع ملايين من الجنيهات ينقل به هذا التراث . وثانيتهما وهي المشكلة الكبرى التي استعصت على حلول الاستاذ فلم يتعرض لها وهي ان الحروف اللاتينية تحل مشكلة لتخلق مشكلة . تحل مشكلة القراءة وتخلق مشكلة الكتابة . فالحركات والضوابط تحولت في الاقتراح الى حروف في الكلمة ذاتها . وهذا يعنى انه يجب على كل من اراد الكتابة ان يتقن اللغة نحواً وصرفاً ويصبح مشابهاً للاصمعي وسيبويه فيها حتى يستطيع ضبط الكتابة . وهي مشكلة تنعدم بالنسبة للحروف العربية في رسمها الحالي لأنها تخلو من حروف الحركات . وتخلو من الشكل .

وهكذا فان اقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي لا يحل المشكلة كلاً ولا جزءاً ، وانما يحمل من « تحدث في نفسه فكرة مفيدة للناس ويحب نشرها فيهم بالكتابة او الخطابة على ان يأخذه خوف الانتقاد ـ لأنه لن يكون آمناً من الخطأ ـ فيكتم فكرته في نفسه ويميتها أو هو ينشرها بلغة من اللغات الأجنبية التي اصبحت عند كثير من الشرقيين أيسر عليهم من لغتهم العربية (١) » .

٧

مشكلة الكتابة والقراءة

إذن ، فما الحل ؟ ما الحل الذي ينهي المشكلة اذا كان اقتراح

(١) من قول الاستاذ في اقتراحه

الاستاذ عبدالعزيز فهمي لا ينهيها ؟ .

اما انا فأعتقد ان رسم الكتابة العربية رغم المآخذ عليه لايحل المشكلة ولا يحمل مفتاح حلها ، لأن المشكلة تتركز في قواعد اللغة نحواً وصرفاً ، والاستاذ عبدالعزيز فهمي نفسه يعترف بذلك لانه يقرر ان القارئ غير المتمرن يضطر الى تصحيف الكلمة على جميع اوضاع الحركات التي تحتملها الحروف . فالمشكلة اذن في الحركات والضوابط اي في النحو والصرف . وليس الخط سوى الشكل المادي لها . لذلك ارى ان ما نحتاج اليه هو تبسيط قواعد اللغة ، وردها الى السليقة العربية الاولى — الخالية من التعقيد — واستخلاص تلك القواعد البسيطة التي كانت تضبط لسان العربي ، فتجعله يرفع الكلمة او ينصبها او يضمها ...

وانا حين اقرر ان مشكلة اللغة ليست في رسم كتابتها وانما في قواعدها لا انفرد بالرأي وحسبي ـ دليلاً ـ هذه الفقرة من تقرير الاستاذ علي الجارم الى المجمع ، يقول : وبقي علينا ان ننقذ قراء العربية من اللحن الشائن والخطأ المعيب ، وان نجعل لغتنا الشريفة في صف مع جميع اللغات الحية التي لا تحتاج في قراءتها صحيحة الا ان تترجم الاصوات عن رسوم الحروف .

« وفي الحق ان القراءة اصبحت عندنا عملاً علمياً دقيقاً كثير التعقيد والتركيب ، وصارت فناً من الفنون او عبئاً من الاعباء . وان شئت ان تقول انها اصبحت لغزاً من الالغاز فقل ؛ انك لا تستطيع قراءة العربية على وجهها الصحيح إلا اذا كنت لغوياً صرفياً نحوياً معاً ، فان لم تكن كل هؤلاء جميعاً عجزت عن ان تكون قارئاً او شبه قارئ ... »

ولتقرير الاستاذ الجارم ورأيه عندي قيمة خاصة لانه في عداد

القلائل الذين ذللوا عصيّ اللغة فهو عالم ثبت فيها ، وهو بعد ذلك ، يمثل الجانب المحافظ المتزمت .

ولا أريد ان امر بمشكلة القراءة والكتابة دون ان اعرض لبعض مشاكل النحو والصرف على سبيل المثال ، لا الحصر .

١ ـ في اللغة العربية ٨٠ الف اصل ـ عدا مشتقاتها ـ لا تُعرف حركات حروفها بذات رسمها ، وليس لها قاعدة او قواعد لمعرفتها .

٢ ـ هنالك ٤٤ وزناً للافعال ما بين ثلاثي مجرد ورباعي مجرد وثلاثي مزيد بحرف او بحرفين او بثلاثة ، ورباعي مزيد بحرف او بحرفين ، ولكن هذه الاوزان لا تعطي قاعدة عامة لضبط حركات الافعال ، فأنت مضطر لمعرفة ذلك الى الرجوع للقاموس بالنسبة لكل فعل .

فمثلا : نصر فعل ثلاثي مجرد . وانت تعلم ان الثلاثي المجرد يأتي على ستة اوزان هي : فَعَل يفعُل . فعَل يفعِل . فعَل يفعَل . فعُل يفعُل فعِل يفعِل . فمن اي هذه الاوزان فعل نصر ؟ لا تدلك القاعدة . وانما عليك ان تضبط حركاته من المعجم .

ثم تقول لك كتب النحو بعد هذا ، زيادة في الارباك والتعقيد وجعل اللغة سحراً من السحر ، انه لا يلزم في كل مجرد ان يستعمل له مزيد ، ولا في كل مزيد ان يكون له مجرد . ولا فيما استعمل فيه بعض المزيدات ان يستعمل فيه البعض الآخر . بل المدار في كل ذلك على السماع يستثنى من ذلك الثلاثي اللازم فتطرد زيادة الهمزة في اوله للتعدية .

وهكذا فأنت بعد دراسة طويلة مملة لا تستطيع الخروج بمعرفة عامة محددة لأفعال اللغة العربية ، ولا بد لك من المعجم لتعرف كل فعل وكل كلمة ، ثم يسمح لك بعد ذلك ان تزاول اعمال المعرفة والكتابة .

٣ ـ الشواذ، وما اكثرها، ومرد ذلك الى ان اللغة العربية ليست لغة قوم بعينهم وانما هي مجموع لهجات القبائل، وقد جمعها النحاة في غير ترتيب ولا تهذيب، فكانت لنا الثروة الوافرة منها. فمثلاً: تقول القاعدة ان اسماء الآلة تأتي على وزن مِفْعَلة او مِفْعَال او مِفْعل. كـ: مكنسة ومفتاح ومبرد، وقد شذّ عنها ـ سماعاً ـ المِسْعَط. والمُدهُن، والمِنخُل، والمُدَقّ، والمُكحُلة. فضم الميم والعين فيها جميعاً.

٤ ـ وهنالك الحروف التي يجوز فيها لغة حركة او حركتان او ثلاث كـ لِص. لَص. لُص.

٥ الفروقات الدقيقة، التي يتوقف امامها علماء النحو حيارى ـ بين المفعول المطلق والتمييز والمفعول لأجله والحال. ـ وقد بحث فيها ابن هشام في « مغني اللبيب » بحثاً اميل الى المنطق منه الى قواعد النحو ـ (١).

٦ ـ الممنوعات من الصرف. لم جرها بالفتحة ؟ ولماذا لا يعمل حرف الجر مطلقاً، دون استثناء المبني من الظروف.

٧ ـ التذكير والتأنيث في ألفاظ العدد وجعل ألفاظه من الثلاثة الى التسعة على عكس المعدود في التأنيث والتذكير ...

هذه نواح من النحو والصرف في اللغة العربية جديرة بالنظر فيها، وقد ذكرتها كما اسلفت على سبيل المثال لا الحصر.

لعب اللغة ولاعبوها

ذكرت في مطلع البحث ان ما دفعني الى الكتابة فيه اقتراح

---

(١) هنالك نظرة الى النحو العربي تقول بانه منطق كله.

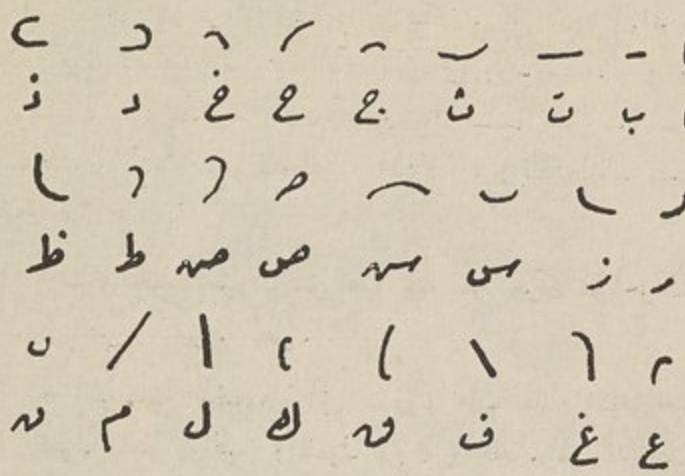

١ - اقتراح الاستاذ يوسف الحطام - انظر رقم « ٣ » ايضاً

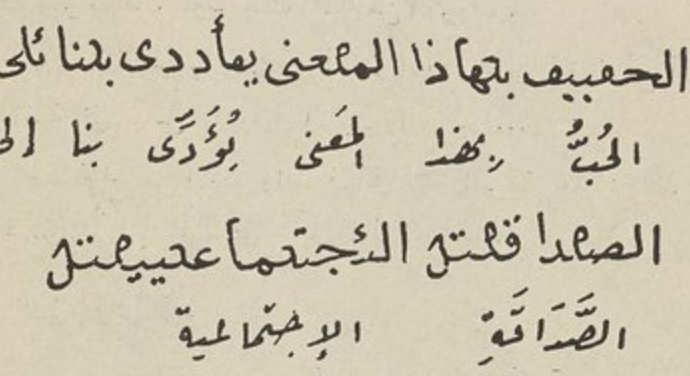

٢ - نموذج من اقتراح الاستاذ عبدالمنعم شرارة

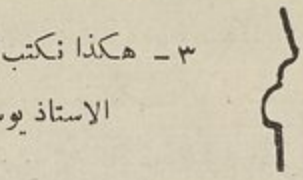

٣ ـ هكذا نكتب كلمة العقل في اقتراح
الاستاذ يوسف الحطاب

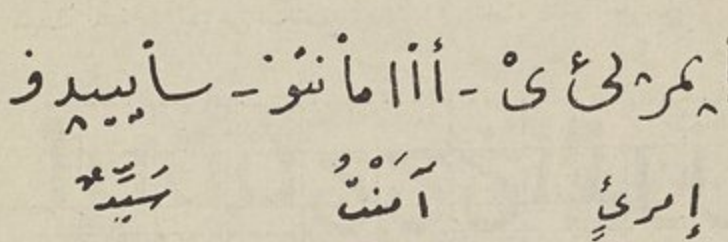

٤ ـ نموذج من اقتراح الاستاذ ابراهيم فهوم

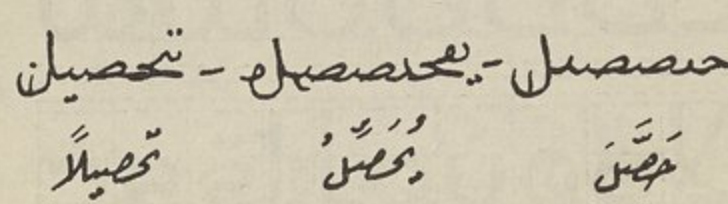

٥ ـ نموذج من اقتراح الاستاذ عبدالمتعال الصعيدي

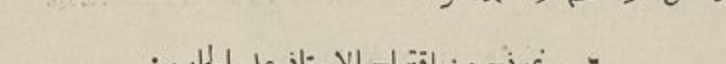

٦ ـ نموذج من اقتراح الاستاذ علي الجارم :
خير البر ما تعهد به المرء نفسه وخير بر النفس ان تربأ بها من مواقف الاعتذار

Al sayfu aṣdaqu inbāsan mina l kutubi
fiy raddi hiddi l raddu bayna l riddi wa ilLa'ibi

٧ ـ نموذج من اقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ في حدِّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

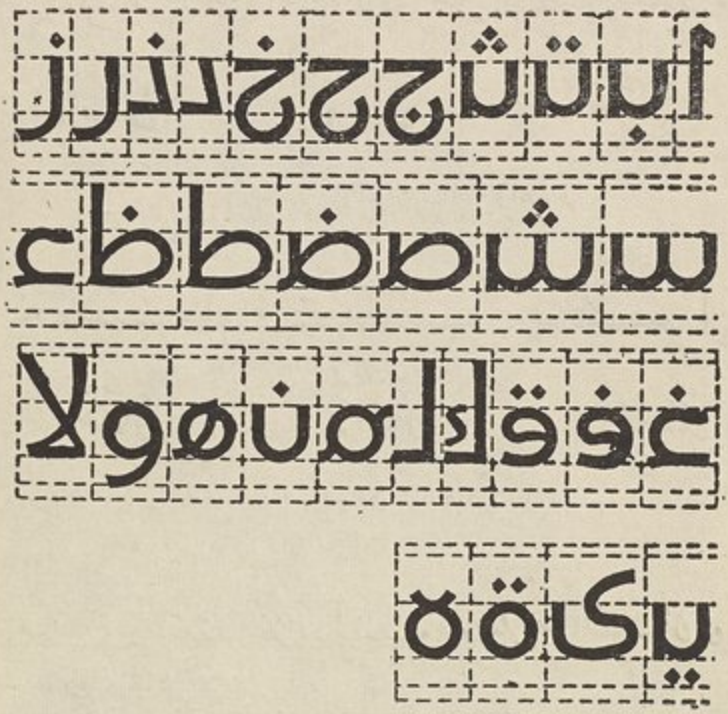

٨ ـ ابجدية الاستاذ نصري خطار

وهي الحروف المقترحة لحل مشكلة الطباعة

صفحة الرسوم الخاصة

٩ - اقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي ، الكامل

انظر الصفحة السابقة رقم - ٧ -

فاف	ف	f	زاى	ز	z	ألف	ا	a
قاف	ق	k	سين	س	s	باء	ب	b
لام	ل	l	شين	ش	š	تاء	ت	t
ميم	م	m	صاد	ص	ṣ	ثاء	ث	th
نون	ن	n	ضاد	ض	ḍ	جيم	ج	j
هاء	ه	h	طاء	ط	ṭ	حاء	ح	ḥ
واو	و	w	ظاء	ظ	ẓ	خاء	خ	kh
همزة	ء	'	عين	ع	ʿ	دال	د	d
ياء	ى	y	غين	غ	ġ	ذال	ذ	dh
			فاء	ف	f	راء	ر	r

أما احرف الحركة فهى :
(a) للفتحة و (u) للضمة و (i) للكسرة .

وأما الأحرف التى لاشبيه لنطقها فى العربية فهى :
c. g. j. p. v. x.

ويلاحظ أن الحروف المرسومة لغاية هى حروف عادية أما الكبيرة اللاتينية (majuscules) فهى حروف خاصة. وتكبير الحروف المأخوذة من العربية يكون بتكبير رسمها عالية مع رؤسها دون كاسانها .

١٠ ـ صورة النقش الذي ابقى لنا رسم الكتابة العربية في صدر الاسلام

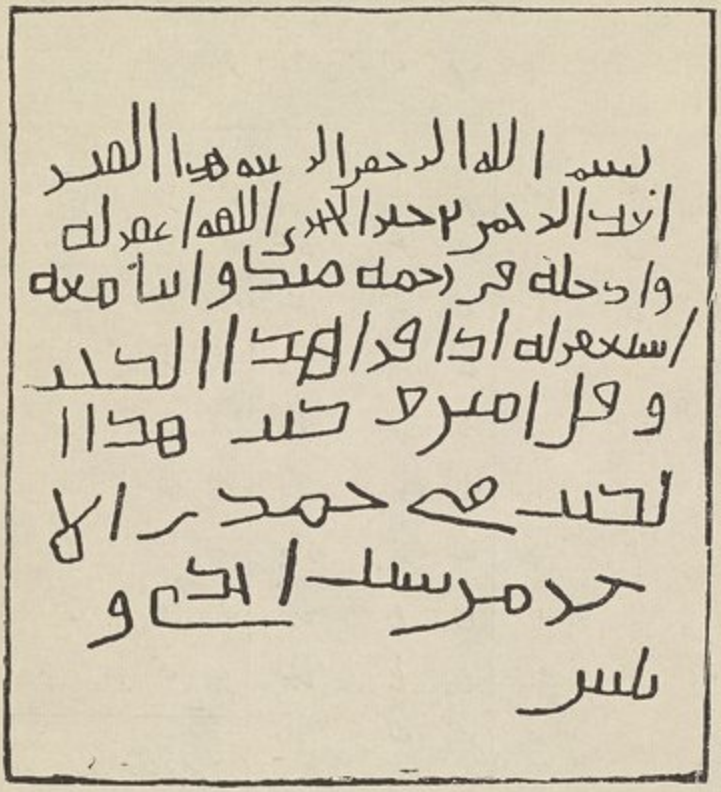

ويدل ما فيه انه كان مُنصباً على قبر رجل يدعى عبدالرحمن بن خـــير أو جبر أو جابر أو جبير الحجري او الحجازي .

السطر الأول : بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر . ٢ ـ لعبدالرحمن بن خير الحجازي اللهم اغفـــر له . ٣ ـ وادخله في رحمة منك وآتنا معه . ٤ ـ استغفر له اذا قرأ ـ ت ـ هذا الكتب ـ الكتاب ـ . ٥ ـ وقل آمين وكتب هذا ا . ٦ ـ لكتب في جمدى ـ جمادي ـ الا . ٧ ـ حر ـ الآخرة ـ سنت ـ سنة ـ . ٨ ـ احدى وثلثين ـ ثلاثين ـ .

الاستاذ عبدالعزيز فهمي وقد أوجزناه ، ومقال الأستاذ احمد جاد المولى وقد أسميته لفوري : لعب اللغة العربية ولاعبوها . فما اظن الاستاذ جاد المولى جاداً . وقلت ان الاستاذ جاد المولى يمثل في نظري انكماش المحافظة . وها انذا مورد فقرات من مقاله الطويل ، لنلمس هذا الانكماش في محافظته وتزمته كما لمسنا الفوضى في انطلاق الاستاذ عبدالعزيز فهمي وثورته :

« ألا واننا قد انتهى الينا من فنون متن اللغة فن ظاهر الفضل ، جليل المغزى الى ما به من طرافة تبعث على الطرب ، فهو يجمع بين الفائدة والمتعة كليهما ، كالورد المنضور ، انت من رائحته وورقه بين عبير وحرير .

اما سبيل التأليف في هذا الفن الطريف من متن اللغة فهو ان تذكر اللفظة ثم تفسر بلفظة ثانية ، ثم تفسر الثانية بثالثة ، ثم تفسر الثالثة برابعة ، ثم تفسر الرابعة بأخرى ، وهكذا حتى تجتمع جملة صالحة فيستأنف السياق بلفظة جديدة ويتبع فيها ما اتبع في اختها من قبل ، ثم يطرد هذا النسق حتى نهاية الكتاب . »

الى ان يقول : « وفي هذا الفن الف فريق من علماء اللغة مؤلفات ذات بال ، الا اننا لا ندري عدادها ، فلقد عبثت بكثير منها ايدي الغير كما عبثت بأمثالها من آثار قرائح السلف المجيد .

على ان الأيام اسأرت لنا من كتب هذا الفن بقية دالة ، بيد ان هذه البقية ظلت ـ حتى اليوم فيما نعلم ـ مخطوطة في دار الكتب المصرية ، أو في خزائن من يعنون بجمع المخطوطات ، فلم يطبع منها كتاب حتى تتعدد نسخه ، فيحظى بمطالعتها الجم الغفير من شداة اللغة وطالبيها .

وانت جد خبير ان في بقاء هذه الكتب الباقية مخطوطة تعريضها للتلف وحبسها عن ايدي الجمهور « !!! » ولذلك جردنا القلم لكتابة هذا الفصل ... »

عن كتاب « المداخل » لمؤلفه ابو عمر المطرز وهو من كتب هذا الفن ويروي صاحبه عن ثعلب النحوي ـ وابو عمر هذا تلميذ ثعلب ـ .

أخبرنا ثعلب عن ابن الاعرابي قال : سألت اعرابياً ما رأيت افصح منه منذ ثلاثين سنة : ما الجُحال ؟ فقال : القشْيب . قلت : وما القشب ؟ قال : الذُّعاف . قلت : وما الذعاف ؟ قال : الذيغان . قلت : وما الذيغان ؟ قال : الارون . قلت : وما الارون ؟ قال : السَّم . قلت : فما السم ؟ قال : ثقب الابرة . قلت : وما الابرة ؟ قال : رأس الرَّوْق . قلت: فما الروق : قال : المدْري . قلت : فما المدري ؟ قال : قرن الجارية . قلت : فما الجارية ؟ قال : الخوْلة . قلت : فما الخولة ؟ قال : الطبية . قلت فما الطبية ؟ قال : الجراب الصغير . قلت : فما الجراب ؟ قال : بدن البئر قلت : فما البدن ؟ قال : الشيخ المسن . قلت ، فما البدن ؟ قال ، درع الحديد . قلت : فما البدن ؟ قال : الرجل المتماسك في جسمه . قلت : وما البدن ؟ قال : الثَّيْتَل . قلت ، وما الثيتل ؟ قال ، الحِطَّان . قلت ، فما الحطان ؟ قال : البُغَيْبغ . قلت ، فما البغيبغ ؟ قال ، العَلْهب . قلت : فما العلهب ؟ قال ، تيس الجبل ، وهكذا ...

وينهي الاستاذ جاد المولى مقاله بقوله « ... فلقد هالنا ما رأينا من إغفاله » ـ يقصد هذا الفن ـ

هذا رجل من رجال العربية ، وعضو في المجمع العلمي يسمي هذا اللعب فناً ويقول انه هاله ما رأى من اغفال هذا الفن وانه جرد

القلم لكتابة هذا الفصل ، وان في بقاء الكتب مخطوطة تعريضها للتلف وحبسها عن ايدي الجمهور ، وان هذه المخطوطات بقيت في خزائن من يعنون بجمعها فلم يطبع منها كتاب حتى تتعدد نسخه ويحظى بمطالعتها الجم الغفير من شداة اللغة وطالبيها . »

فكيف نرجو بعدُ صلاحاً على يده وهل ننتظر اصلاحا من مثله ؟ !

٩

جهود المجمع

والكلام عن الاستاذ يجرنا الى الكلام عن المجمع ـ وسواء في ذلك مجمع القاهرة ودمشق ـ وجهوده ، وقد رأيت طرفاً منها في مقال الاستاذ جاد المولى واقتراحه بنشر كتب اللغة المفيدة . . وها أنذا أقدم طرفاً آخر من جهد المجمع للعلامة الشيخ عبدالقادر المغربي .

كتب الاستاذ المغربي في مجلة الرساله العدد ٢٧ السنة الثانية ٩٣٤ مقالاً بعنوان : واخيراً النون . عن الانسيكلوبيديا Encyclo pédie . وبعد ان ذكر الأسماء التي اطلقت على هـذه الموسوعة الثقافية التي تتضمن كل فن ومطلب من مطالب ثقافات الامم ومقومات حضارتها ـ عدا اللغة ـ وهي :

الكوثر : واول من وضع هـذا الاسم بطرس البستاني في معجمه العربي الجامع عام ١٨٧٦ . ثم اسماه دائرة المعارف .

لغات تاريخية وجغرافيـة : وقد وضع هـذا الاسم احمد رفعت في الآستانة عام ١٨٨٢ .

مصور دائرة المعارف ، وقد أسماه بهذا علي سيدي محمد ، وعلي رشاد في الآستانة ايضاً عام ١٩١٤

موسوعة ، ابرهيم اليازجي - سوريا .

كنز العلوم واللغة ، فريد وجدي عام ١٩٠٧ ، ثم بدا له فغيره عام ١٩٢٣ بـ دائرة معارف القرن العشرين .

محيط المعارف ، أمر الله افندي . الآستانة

مَعْلَمَة ، الأب انستاس الكرملي — بغداد .

واخيراً النون

يقول الاستاذ المغربي انه بعد الجدل استبعد المجمع العلمي من الاسماء ما كان مركباً كدائرة المعارف .

اما المفردات ، فالكوثر لا تدل على المراد من الانسيكلوبيديا وموسوعة مختلف في اصلها وسلامة عروبتها « !!! » فلم يبق الا كلمة معْلَمة التي تدل على معنى وعاء العلم واشتد الجدل حول معلمة ورفضها من رفضها بحجة انها انما تدل على كتاب فيه علم ولا تدل على معنى الشمول والاحاطة كما هو المقصود من الانسيكلوبيديا .

فرد على الاعتراض بأن المعلمة تدل على الكثرة لأنها مصوغة على وزن مأسدة . ومسبعة . ومذبّة . ومقثأة . وملصة . اي ارض كثيرة الأسود ، وكثيرة السباع ، والذباب والقثاء واللصوص .

واشتد الجدل وقال الرافضون ان كلمة سبعة واخواتها الدالة على الكثرة انما هي صيغ خاصة وقعت للعرب في صفات الأرضين والاماكن

وحدها ، حتى ان ابن سيده عقـــد لهذه الكلمات في مخصصه جزء ٣ ص ٢٠٥ باباً عنونه بقوله ، « باب مفعلة من صفات الأرضين » فكيف يصح لنا ان نجعلها من صفات الكتاب . ولم يبق لمعلمة الا ان تكون كصيغة مقلمة ـ وعاء الأقلام ـ وهذا يضعف من امر اختيارها لتحل محل الانسيكلوبيديا .

ثم قال البعض ان الياس المقدسي عضو المجمع اقترح وضع كلمة « النون » .

وقد رفض الاستاذ المغربي هذه الكلمة ، وناقش في الدلالة على عدم توفيتها المعنى وجوازها .

هذا مثال آخر للنقاش الذي يدور بين اعضاء المجمع في سبيل الغاية التي انشيء من اجلها وعين اعضاؤها لها .

وبدهي بعد هذا ان تعيش كلمة موسوعة او دائرة المعارف ، بينما كان الاستاذ المغربي واعضاء المجمع يتلهون في جدالهم وابحاثهم .

وثمة جهود أخرى للمجمع انتج فيها شيئـــاً نضع منه عينة امام القارىء فقد سمى المجمع ترمومتر فرنهيت ، محرّ فرنهيت . وسمي فم المتمعّجات . وفي الرسم سمي البوز ، الوضعة ـ ولست ادري ما منعه من استعمال الوقفـــة مثلاً وهي اسهل وادرج ـ وفي الموسيقى سمي التامبور ، البَنْدير او الدف ... الخ

هذا جانب من جهود المجمع عرضته على القارىء ليعرف اسباب قصور العربية عن اداء كثير من الألفاظ الاجنبية . وهنا تبدو هذه الحقيقة وهي ان المجمع يحيا حياته المتحجرة الخاصة به . وهو لا يقترب من الشعب . ولا يحاول ان يقترب . والكلمات التي يعربها يعربها ضمن

هذا النطاق للحياة الخاصة ، فلا يتداولها الناس وتبقى عملة مهجورة لا تصلح للاستعمال لان قوتها الشرائية مفقودة في سوق الحاجة .

١٠

لماذا لا ننقل ونعرب

بعد أن تحدثت عن مشكلة اللغة العربية رسماً ونحواً وصرفاً ، وعن جهود المجمع في تحجير اللغة ، وعرضت مأساة العربية بين انطلاق الفوضى وانكماش المحافظة ، أرى ان اسأل : لماذا لا ننقل ونعرب ونبسّط ؟ ان اية دراسة لتاريخ اللغة العربية تدلنا على ان في طبيعة اللغة ما يسمح بالنقل والتعريب والتبسيط . وان اللغة العربية البدوية ما كانت لتسد حاجة المجتمع العربي في ازدهاره أيام الحكم العباسي مثلاً لو لم تقبل التعريب والنقل . وانا اذكر هنا بعض الكلمات المأخوذة عن اليونانية كما ذكرها الاستاذ بندلي جوزي بمجامعة باكو في مجلة المجمع (١) .

ابليس . انجيل . ابريسم . اخطبوط . السرطان . ازميل . اسطول اسطورة . اسطنبول . افريز . اقليم . اسفنج . برج . بقدونس او مقدونس . بلغم . بندق . بطاقة . بيطار . ترس . ترياق . جنس . جسر درهم . دكان . دمقس . زكاة . زنار . زوج . سفود . سيمياء . طاووس . فانوس . فرخ . فرصة . قرنفل . قرنبيط . قصدير . فضة . قفل . قلم . قلنسوة . قمة . قميص . كتان . قنب . كيس . كيمياء . مرجان ملوخية . منديل . نافورة . ناموس ..»

إذن فقد أفاد العرب من التعريب ـ وليس في طبيعة اللغة العربية

(١) العدد الثالث ٩٣٦ ص ٣٣٠

ما يمتنع على ذلك ـ فلماذا لا نعرب اليوم وننقل ونتوخى السهولة واليسر في النقل قبل ان تعم الكلمات الأجنبية ، وتخضعها اللهجات الخاصة لكل بلد عربي مع التحريف بحيث يصبح من العسر بمكان تعميم الكلمة التي يضعها المجمع وان توفرت لها عناصر اليسر والسهولة .

١١

القرآن ليس عثرة

ولكن رب معترض على النقل والتعريب ، واقتراحات تغيير رسم الحروف ، بالقرآن . وهنا الحرج والاحراج ، لأن الحديث فيه لا يخلو من التأويل والتفنيد وتحميل الكلام اكثر مما يحمل ، عند ذوي الغرض ، او الفهم السقيم .

ولكنني استشهد بشيئين من القرآن نفسه : اولهما ان القرآن استعمل كثيراً من الكلمات غير العربية كالجبت والطاغوت وجهنم ، واستبرق ، وسندس ، وصراط ، وسجل . وثانيهما ان رسم القرآن لم يكن كما هو اليوم . فقد كان الرسم بدائياً يوم امر عثمان بجمع القرآن وليس لدينا نسخة من قرآن عثمان بتلك الحروف ، ولكن لدينا قطعة اثرية ترجع الى ذلك الوقت (١) .

والملاحظة الاولى على هذه القطعة ان الحرف العربي كان خالياً من التنقيط والشكل ـ وتتفق الروايات على أن الحجاج بن يوسف هو الذي قام بتنقيط القرآن بأمر من عبدالملك بن مروان مستعيناً بالخطاطين والحفاظ وان الخليل بن احمد هو الذي قام بتشكيل الحروف .

وهنالك حقيقة تاريخية بالنسبة للكلمات العربية يعرفها كل من

(١) انظر صفحة الرسوم رقم ١٠

درس تاريخ اللغة دراسة وافية ، وهي ان الاسلام ابدل كثيراً من الكلمات العربية التي كانت تستعمل في الجاهلية لاتصال بعضها في اذهان العرب الجاهليين بشئون وثنية او نظم جاهليـة . ومنها اسماء الأيام والشهور . فقد كانت اسماء الأيام في الجاهلية هكذا : السبت : شيار . الأحـد : اول . الاثنين : اوهن او اوهد . الثلاثاء : جبار . الأربعـاء : دبار . الخميس : مونس . الجمعة : عروبة . وكانت اسماء الاشهر :

المؤتمر . ناجر . خوان . ويصان . الحنين . ربى . الاصم . عادل نامق . وعل . ورنة . برك .

ونخلص مما تقدم الى نتيجتين : أولاً ان القرآن ليس عثرة في طريق من يريد اصلاح اللغة رسماً ، او نحواً وصرفاً ـ ويروي لنا التاريخ هنا ان القراءات كانت متعددة في القرآن ، وقد بقيت هذه القراءة — فيما أرى ـ بفعل ظروف سياسية بحتة ، وجعلت لها الغلبة على غيرهـا من القراءات — .

وثانياً ـ ان اللغة العربية لم تمتنع على التطور ، وقـد أفادت من النقل والتعريب كثيراً .

وإني لأرى انه اذا اردنا لهذه اللغة ان تعيش فقد وجب علينا ان نعتبرها وسيلة — كأية وسيلة اخرى — وليست غاية . وان نعمل على تطويرها وجعلها صالحة للتعبير عن الحياة . فنغير ـ مثـلاً ـ رسم حروف المطبعة لتساعد على نشر الثقـافة ، ونلغي كثيراً من شواذ اللغة نحواً وصرفاً ، ونجعل للقاعدة صفة الشمول والاطلاق . ثم اخـيراً : نعرب وننقل ونُبسّط .

في المهنة

حملني على الكتابة في الموضوع شاب دفع به إليّ صاحب الجريدة التي كنت أعمل بها لتمرينه واعداده للعمل في الصحافة. وقد سألت الشاب عما يزاول من عمل فقال انه موظف. وحين قلت له ان الصحافة تحتاج الى التفرغ، اي الى وقته كاملاً اجاب بأنه سيترك عمله.

وقد بدا لي ان اسأله عن الاسباب التي تدفعه الى العمل الصحفي لأعرف مدى ادراكه لعمله الجديد. وبعد حديث عرفت ان الصحافة عنده مهنة ذات سحر واغراء. فهي تجعله يحلم، مثلاً، بالنفوذ الواسع الذي تمنحه لممتهنها عند الرأي العام، وفي دوائر الحكومة. وبالفرص التي تتيحها له في التحدث الى رجال السياسة وشخصيات المجتمع، والاتصال بالناس، وارتياد الملاهي، والاندية، والحفلات التي قد لايستطيع ارتيادها طوال حياته لو لم يعمل في الصحافة.

وهي تجعله يحلم بالحرية الواسعة التي يمارسها الصحفي في النقد — والتهجم احياناً كثيرة — هذه الحرية التي لا يمارسها مواطن مهما بلغ من القوة والسلطة والنفوذ. وبالراتب الضخم الذي سيتقاضاه حين يصبح صحفياً ناجحاً كبقية زملائه من الصحفيين الناجحين، وبما سيدخل على نفسه من شعور الزهو حين يقرأ له الناس ويتناقشون فيما يكتب،

ويختلفون ، فيؤيده بعض ، وينا كره بعض ، ويحايده بعض .

بمثل هذا كان يتصور العمل الصحفي : قبضة من الاحلام . لذلك حين سألته عما اذا كان يضع الى جانب احلامه هـذه شيئاً من واقع المهنة بدت عليه الدهشة ! فليس للمهنة اي واقع في نظره . وانما هي شيء يستطيـع ممارسته وبنجاح كل انسان يجيد الكتابة بلغة سليمة خالية من اخطاء النحو ، وجيدة خالية من اخطاء البلاغة !

وكان يتصور ان الصحافة عمل يؤديه الصحفي على هينة واتئاد . وانه يكفي ان تخرج الصحيفـــة بأي شكل ، وأي مقال ، واي خبر ليقبل الناس على قراءتها .

وليست احلام هذا الشاب بدعة ، فهي احـلام كل شاب يطلب العمل في الصحافة ، يريد لذتها ولا يعرف مرارتها . وانا نفسي حـين قررت ان تكون الصحافة مهنة لي لم يكن دافعي الى احترافهـا سوى القضاء على رتيبيّة الحياة ، اي كلاسيكيتها ، وجعلها بتنوعها في الصحافة شائقة حية . ولم اكن اعرف ما يتطلبه القضاء على هذه الرتيبية من حركة دائمة ونشاط مستمر ، وجهد دءوب لا يعرف للراحة مذاقاً ولا طعماً .

وثمة شيء آخر في واقع المهنة (١) يجب ان يدركه بوضوح كل من يريد العمل فيها ، هو غاية الصحافة . أهي تجارة وربح ؟ ام ثقـافة وتوجيه ؟ والجواب هنا يلقي ضوءاً على قضية الصحافة ومهمتها وغايتها .

اذا كانت الصحافة تجارة وربحاً فهي سلعة ، لأن المادة تصبـح غاية وجودها . وهي تضحي في سبيلها بكل مَثَل ومفهوم واذا كانت ثقافة فهي قيمة . لأن الحقيقة تصبح هدفاً لها وهي تضحي في سبيلها

(١) واقع المهنة ـ عندي ـ ليس حالها الراهن وانما هو حالها كما هو ممكن ، وواجب الوجود .

بكل ما قد تجنيه ربح .

ولكن الصحافة لا يمكن ـ او الاصح ـ يجب ان لا تكون تجارة وربحاً بالمعنى الشامل لكلمة التجارة والربح كما انها لا تستطيع ان تكون ثقافة وتوجيهاً ، اي قيمة مطلقة .

ففي الاولى تصبح الصحافة أداة هدم بما تتمتع به من حرية وسلطان دون موجّه ولا ضابط . وفي الثانية تفشل في صراعها مع البقاء لانها مقسورة على الخضوع لظروف وشروط مادية قاسيه لا تستطيع انكارها مهما بلغت قيمة الاخلاق والمثل في نفس الصحفي من صلابة .

لذلك ارى ان الصحافة تجارة للثقافة . فهي تضع رسالتها العامة جانباً الى الحد الذي يضمن لها الاستمرار ، وهي تضع المادة جانباً الى الحد الذي يضمن بقاء هذه الرسالة كأساس لوجودها .

والتوضيح اقول : ان رسالة الصحيفة لا ترسم لها طريق النجاح ـ ونجاح الصحيفة هنا شرط بقائها ـ وانما يرسمه القراء انفسهم . فبمقدار اقبالهم عليها او اعراضهم عنها يقررون مصيرها . صحيح ان القارئ المثقف ثقافة حقيقية يفضل الصحيفة التي تحمل رسالة ، ويدعمها بالاستمرار في قراءتها ، ولكن هذا الصنف من القراء نادر .

لذلك كان لا بد من ارضاء القارئ العادي الذي تنحصر قيمة الجريدة في نظره في الخبر لا في التعليق . ويحضرني هنا ما كتبه برنارد شو الى احدى المجلات ذاكراً بعض الحقائق عن الصحافة . قال : ان عمل الصحافي في الاصل هو الاخبار وليست الفلسفة السياسية ، وان الجمهور لا يحتمل تلك الجعجعة الفارغة التي لا تحوي شيئاً ، كما لا يحتمل سخافة المدعين الوعاظ ، او هذيان السياسيين . قد يقرأ الجمهور لبعض هؤلاء الحمق لانها خير من لا شيء ولكن متى وجد ذلك الشخص

الذي يستطيع تغذيته بشيء حقيقي ، فلن تجد لنهم الجمهور عندئذ لقراءته حداً » .

وانا لا اريد أن انكر قيمة الرسالة بالنسبة للصحيفة فهو شيء جوهري . ولكنني أرى ان هذه الرسالة اذا اصطدمت بصراع الصحيفة للبقاء وجب وضعها جانباً لتنسجم الصحيفة مع ظرفها المادي القاسر بأقل ما يمكن من التضحية . على ان لا تصل الى حد القضاء على جوهر الرسالة واساسها .

ولا أقصد بالرسالة هنا ، الحزبية ، فللرسالة عندي غير هذا المفهوم . انها المبادئ والمثل والقيم الاخلاقية العامة التي يحملها انسان ـ اي انسان ـ في نفسه فتضبط حياته وتصرفها ، وتوجهها وجهة الخير والجمال والعدالة . وهي بالنسبة للصحافة تعهد ضمني بين الصحفي والقارئ يتعهد فيه الصحفي بتقديم الخبر الصادق والتعليق المخلص قدر ما يعلم وجهد ما يستطيع .

قلت ان نجاح الصحيفة ـ اي بقاءها ـ مرهون برضاء القارئ العادي الذي تنحصر قيمة الصحيفة عنده في الخبر دون التعليق . وقد وجب ان احدد نوع الخبر الذي يريده القارىء ، ولا ينسجم مع الرسالة العامة للصحيفة .

ماذا يطلب القارئ ؟

انه يطلب المداعبة ، والاثارة ، مداعبة غرائزه واثارة عواطفه وتملقها .

وهو يطلب البريق واللمع والوهج لأنه يتلهى بها عن التفكير المركز والاستغراق العميق . وهو يطلب الايجاز والاقتصاد ، لأنه

منهك ، ولأن وقت فراغه ضيق محدود . فقد تقسمته السينما والراديو والملهى ، ووسائل الثقافة الاخرى .

وهو يطلب الخبر السريع ، ولا يهتم بمصدره ولا بصدقه قدر ما يهتم بما يرضيه منه ويلائم ذوقه .

وهو يطلب بعد هذا ان ترسم الصحيفة صورة لحياته المتحضرة . صورة القلق والحيرة والاضطراب . هذه العناصر التي استبدت بحياته وعصفت بالبقية الباقية من الاستقرار والاطمئنان الديني في قلبه ، الذي كان ينقاد له . ثم لم تعوضه الحضارة الحديثة عنه عوضاً .

وهنالك شيء آخر يطلبه القارئ في الصحيفة هو الصورة . فقد اثر انتشار السينما في الصحافة اذ نقل بعض جاذبيتها من التفكير الى النظر . والقارئ لا يبذل في الصورة مجهوداً عقلياً كالذي يبذله في المقال او الخبر . وقد قلّت بنمو هذا العقل السينمائي قوة التركيز عنده وساعد على ذلك هذه الحضارة المرهقة للاعصاب فقد جعلت القارئ يتهرب من كل ما يحتاج الى مجهود واستغراق .

ويعتقد « ديهاميل » ان هذه الظاهرة الطفيلية التي تلوح لأول وهلة قليلة الاهمية قد مست كل قيمة للصحافة كوسيلة للتثقيف .

« فالصور شيء طريف ، وهي تقدم لنا بسرعة خير ما تحمل ، كما انها تساعدنا ـ احياناً ـ على فهم اشياء لا تستطيع الالفاظ ان تعبر عنها بسهولة . ولو انها أدعمت بنصوص ممتازة جيدة التحرير لزادت فهمنا للعالم . وفي المؤلفات المصحوبة بصور ما يشهد بذلك شهادة بينة . ولكن الصورة اخذت تحتل في جرائدنا اليومية مكاناً مروعاً ، وقد قتلت النص لا لانها تستغرق جانباً من ميزانية الجريدة ، اولانها تنحي وتطرد التحرير

فحسب ، بل لانها توهم بان النص لا فائدة فيه . اذ يقول رجل القرن العشرين لنفسه « ما الداعي لقراءة كل هذا المقال المكتوب بحروف صغيرة ، وانا ادرك الموضوع بمجرد نظرة . القراءة متعبة ، وانا منهك بعد ان قضيت نهاري كله في المعمل او في الديوان ، ثم انه لا فائدة من القراءة . لا فائدة اصلاً . »

كما يفعل الطفل ـ اذ يبلل اصابعه ليمر من صورة الى صورة دون ان يقف ليقرأ النص لانه لا يعرف القراءة ـ كذلك يفعل رجل القرن العشرين اذ يمر ببصره المجهد العابر الكليل على الصفحات المنشورة امامه ، وعنده ان اي مجهود مهما كان تافهاً اكبر مما يستطيع . »

هذا هو بايجاز النوع الذي يريده القارئ ، والذي قد لا ينسجم مع رسالة الصحفي ولكنه يضطر الى تلبية القارئ والاستجابة لرغبته تحت ضغط الظروف والشروط المادية القاسية التي تتعرض لها الصحيفة .

اما غير ذلك مما يمس جوهر الرسالة واساسها ـ كما اسلفت ـ كالخبر المأجور ينشر لمصلحة تضر بمصلحة الجماعة مثلاً او الاعلان ينشر لمصلحة اقتصاد اجنبي يزاحم اقتصاداً وطنياً فليس مما يدخل في باب التضحية لانه يمس الجوهر وينفذ الى الصميم. اي يصبح تضحية بالرسالة ذاتها .

أبو محجن

على بعد خمسة وسبعين ميلاً الى الجنوب الشرقي من مكة ، كانت مضارب ثقيف راقدة في سفح غزوان مستلقية في احضان الطائف .

وثقيف هذه قبيلة من اياد ، وقيل من هوازن (١) أسلمت في السنة التاسعة للهجرة ، وانجبت رجالاً حدّث عنهم التاريخ ، منهم « الأجرد » الشاعر الشريف . و « طريح بن اسماعيل » شاعر الوليد بن عبد الملك وخدنه المقرّب .

ومنهم الحارث بن كلدة طبيب العرب ، والمغيرة بن شعبة والي البصرة لعمر بن الخطاب ، ومحمد بن القاسم فاتح السند .

ومنهم ايضاً امية بن ابي الصلت . وايضاً ، وايضاً ابن جلا وطلاع الثنايا ، صاحب اهل العراق !

ولقد عاشت ثقيف حياة جاهلية بأدق ما توحي به كلمة « الجاهلية » من استجابة للحس ، واستمتاع باللذة ، فأربت ، وزنت ، وعاقرت الخمرة وذهبت في ذلك مذهباً لا يميل بها الى قصد ، ولا تميل فيه الى اعتدال ! وكان من شروط النبي عليها في الصلح ان تمتنع عن هذه جميعاً .

---

(١) ابن الاثير ج ١ ص ٢٨٨

ولم يكن بد لثقيف من ان تعيش على هذا الاسلوب من الحياة وتأخذ حظها منه ، فقد كانت الطائف مبتلة العشايا ، مطلولة الاسحار تتدهده(١) اليها من قمة غزوان موجات الهواء حاملة رساله الحياة فتبعث في القلوب هزة ونشوة ، وتحملها على مركب اللهو والمتعة .

ولم يكن بد لجبلها غزوان من ان تنتظم على حواشيه الخضر مجالس الراح فقد عرف بكرومه الممتدة ، ودواليه المعروشة ، وعنبه العذب المذاق وزبيبه الحلو الطعم .

قيل ان سليمان بن عبدالملك رأى بيادر الزبيب عن بعد وقد قدم الحج فظنها حراراً اي اراضي بركانية فقال صحبه : ليست حراراً هذه يا امير المؤمنين ولكنها بيادر الزبيب !

عاشت اذن ثقيف على الفتوة الجاهلية ، وصبوتها فشربت الخمر ، وولعت بشربه، فقادها الى الربا والزنا، واباحلها ما اباح من مثل هذه المقابح!

ولم يستطع الاسلام بتعاليمه المحرّمة ان ينزع من نفسها هذا الولوع المتمكن غير انها تحوجت به من المظاهرة ، فاستخفت وشربت على حذر .

في هذه البيئة المطبوعة على حب الخمرة ، وفي هذا الجو الذي يتشوق اليه القلب ويهفو ، والمناخ الذي تتفتح به النفس وتختلج ، نشأ شاعرنا الفارس أبو مِحْجَن الثَّقفي .

نشأ نشأة طلقة حرة ، فلم يتحرج ، ولم يتحفظ وكانت سيرته تمضي على نحو مختلف عن انداده من ثرَوات ثقيف !

على انه من المحقق انه قد كان في طبعه رقة وفي نفسه دعة ، ومن المحقق ايضاً انه كان حمي الانف ذكي القلب ، وانه كان بعد هذا

---

(١) تتدهده، تتدحرج

وذاك صناجة شعر ، و مسْعَر حرب .

استمع منه يقول :

لا تسأل الناس عن مالي وكثرته ... وسائل الناس عن حزمي وعن خلقي
القوم اعـــلم اني من سراتهم ... اذا تطيش يد الرعـديدة الحمق
اعطى الحسام غداة الروع حصته ... وعامل الرمح أرويه من العلق
واطعن الطعنة النجلاء عن عرض ... واكتم السر فيه ضربة العنق
عف المطالب عمـا لست نائله ... وان ظلمت شديد الحقـد والحنق
وقد أجود وما مالي بذي فنع(١) ... وقد أكر وراء المحجر الفرق
سيكثر المـال يومـاً بعد قلّته ... ويكتسي العود بعد اليبْس بالورق

ولقد اسلم ابو محجن في أخريات الناس ، ولكنه مضى في سيرته على ما كان قد اختط لنفسه، فكان طلب نساء ، وتبْع ابكار وغيد ، عشق جارية من الأنصار فاحتال لرؤيتها بعد ان امتنعت عليه ، فـتزيا بزي فلاح وأجر نفسه عاملاً في حائط يبنى بجانب بيتها ، واخذ يطل من كوة بستان هناك ! وكان يعرف ما في فعلته من جراءة فهو يقول :

ولقد نظرت الى الشموس ودونها ... حرج من الرحمن غـير قليل

إلا انه لم يكن يملك امر نفسه ، فقد عاش كما اسلفنا حراً طلقاً يركب لشهوات نفسه الجموح شيطانه الماكر اللجوج .

وكان ايضاً بما اباحت له فلسفـــة حياته رضيع كأس وشرب قدح ، فكان للخمرة محباً ، واليها مشوقاً ، وبها كلفاً . وكان كثيراً ما يسرف حتى تلعب به وتذهب كل مذهب فينشد وهو يترنح :

ان كانت الخمر قد عزت وقد منعت ... وحال من دونها الاسلام والحرج

---

(١) فنع : كثرة

فقد أباكرها صرفاً واشربها ريا واطرب أحياناً وامتزج
وقد تقوم على رأسي جويرية فيها اذا رفعت من صوتها غنج
وترفع الصوت احياناً وتخفضه كما يطن ذباب الروضة الهزج

وكان له في وادي العقيق متنزه اهل المدينة مناخ ومبرك يغدو عليه ويروح في مصبحه وممساه مع صحب له يتحوقون(١) حوله فينشدهم ويغنونه ، وتدار عليهم بين هذا وذاك اكواب الخمرة الشمول ، يتساقونها في غفلة وعلى حذر عللاً بعد نهل (٢) .

ولقد يترشش منها على وجوههم دقائق يحسون لها لذة الظمآن أصاب الماء ، ونعيم المحب بلغت نفسه صبوتها فعاد منقوع القلب، مبرود الغليل .

ولقد تأخذ بعد هذا ابو محجن نشوة الطرب فيدور ويضرب الأرض برجله ، ويدمدم وانه لفي مراحه في يوم من غبوق (٣) نديه يتماوح (٤) من سكر في مطارفه(٥) الموشاة وهو ينشد :

اذا متُّ فادفني إلى اصل كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فانني أخاف اذا ما مت ألا اذوقها

إذا بحرس الليل لعمر بن الخطاب ، وهو يوم ذاك خليفة المسلمين يقبضون عليهم جميعاً ويدخلون بهم على عمر .

---

(١) يتحوقون : يجلسون حلقة.

(٢) شرب عللاً بعد نهل : شرب شربة ثانية بعد اولى ـ والعلل الشربة الثانية . وقد استعملتها بمعنى مرة بعد مرة

(٣) الغبوق . شرب العشاء

(٤) يتماوح : يترنح

(٥) المطارف : اردية من خز مفردها مطرف

ويغضب عمر العادل الشديد ، عمر الذي لا يعرف في الدين مجاملة ولا يأخذه في الحق ضعف فيسألهم في غضب :

هاه ! أشربتم الخمر بعد ان حرمها الله ؟!

فيرد ابو محجن عن صحبه :

بنفسي انت يا امير المؤمنين كيف حرمها الله وهو الذي يقول : ليس على الذين آمنوا جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا .. ؟

فجأ الجواب عمر ، ووقف موقف الحائر يقلب الفكر على وجوهه ويدير الرأي على اضرابه واشكاله ، ثم استشار صحبه فاختلفوا ، واحتكموا جميعاً إلى علي بن ابي طالب ، فقال : ان كان هذا مرمى الآية وتفسيرها فقد وجب ان يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير ! واني ارى ان يقتلوا ان كانوا قد شربوا الخمر مستحلين فان شربوها مستحرمين فالحد الجزاء .

فسألهم عمر ، فقالوا جزعين :

والله يا امير المؤمنين ما داخلتنا ريبة في حرامها . فجلدهم عمر ، واقام عليهم الحد حتى انتهى الى ابي محجن فصاح به .

ويحك يا ابا محجن ! لقد طال عمهك وقد طال خبطك ! ويحك ! افما آن لك ان تقصد منهج الحق والهدى ؟

ما سمع ابو محجن مقالة عمر ورأى الدرة في يده حتى جاش جائشه وقال يحدث نفسه في نفسه : ويحك يا ابا محجن لا ام لك اترهب الحد ؟ اتخشى الوعيد ؟ ثم انبرى منشداً :

الم تر ان الدهر يعثر بالفتى ... ولا يستطيع المرء صرف المقادر
واني لذو صبر وقد مات اخوتي ... ولست عن الصهباء يوماً بصابر
رماها امير المؤمنين بحتفها ... فخلانها يبكون حول المعاصر

فقال عمر محنقاً بعناده :

هاه .. هاه .. والله لأزيدنك حداً !

ولكن صوت عليّ يرتفع قوياً : ما ذلك لك يا عمر . لقد قال ولم يفعل

وكان بعد هذا ان اصر ابو محجن على معاقرة الخمرة واصر عمر على حده حتى بلغ ذلك سبعاً او ثمانياً فيما يروى ! وحتى اعيا امره عمر فنفاه إلى جزيرة ينفى فيها الخلعاء عادة ، وعهد الى « ابن جهراء » من حرسه في امره ، وحذره من ان يدع معه السيف فهو فارس فاتك . ولكن ابا محجن يضع سيفه في جوالق مليء دقيقاً ، ويمضي ، ويمضي حارسه معه . فلما اظلا (١) من شاطئ البحر قعدا للاستراحة من عناء التعب ووقدة الحر . وامتد بهم الجلوس الى ان افرجت الظهيرة ، وفاءت الأظلال ، ومرّ النسيم الفاتر رخياً تداعب انامله الأجفان ، فأخذت الحرسي نعسة وما هو إلا ان يستغرق في نومة قصيرة حتى يقوم ابو محجن الى سيفه فيخرجه وينخزه به نخزة موجعة ، ردته الى صحوه مذعوراً ، وما لمح ابا محجن وعيناه تقدان وفي يده السيف حتى تغشته رعدة ثم انطلق عدو الجواد ألهبه سوط فارسه .

ومضى ابو محجن على وجهه شريداً طريداً ثم قصد سعد بن ابي وقاص في العراق يوم الكتائب من ايام القادسية .

وجاء الحرسي عمر بالخبر ، فقال مغضباً : أفلت الخبيث ؟ أولى له(٢)

ثم علم بتوجهه الى سعد فتقدم اليه في حبسه ، فحبسه سعد يوم وصوله ولو قد ترك امره اليه لأعفاه .

---

(١) اظلا : اقتربا

(٢) اولى له . كلمة تهديد ووعيد

ودارت رحى الحرب يوم ذاك ، وكان يوماً عبوساً بين الفرس والعرب ، فما كاد ابو محجن يسمع صليل السيوف ، ولهاث الخيل حتى أرعدت خصائله نحوة ، واصطخبت اواذيه حمية فجاش واضطرب ثم انشد وقد رأى سلمى زوج سعد :

كفى حزناً ان تطعن الخيل بالقنا ... واترك مشدوداً عليّ وثاقيا
اذا قمت عناني الحديد وغلقت ... مصاريع من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا اهل كثير واخوة ... فقد تركوني واحداً لا أخاليا
وقد شف جسمي انني كل شارق ... اعالج كبلاً مصمتاً قد برانيا
فلله دري يوم اترك موثقاً ... وتذهل عني اسرتي ورجاليا
حبيساً عن الحرب العوان وقد بدت ... واعمال غيري يوم ذاك العواليا
هلم سلاحي لا ابالك انني ... ارى الحرب ما تزداد إلا تماديا
ولله عهد لا اخيس بعهده ... لئن فرجت الا ازور الحوانيا(١)

فالتفتت سلمى وقد اثر بها ما سمعت من شعره ، فقالت :

ويحك ابا محجن ! ما بك خوف السجن ام خشية الحد ؟

قال : بل شوق الحرب في علوج الفرس يا سلمى . ثم قال : هل لك من خير إليّ ؟ قالت : وما ذاك ؟. قال : تخلين عني وتعيرني البلقاء فرس سعد ولله علي ان سلمت ان ارجع اليك حتى تضعي رجلي في قيدي . فترددت سلمى ، ثم اجابت واطلقته .

ركب فارسنا البلقاء ، وانطلق انطلاق السهم المراش فأوجر الفرس مشق رمحه (٢) ، ووخز سنانه . وقال قائل في الناس هذا هاشم

---

(١) الحوانيا : الحوانيت .

(٢) اوجر : طعن بالرمح في الصدر .

ابن عتبة ، وقال سعد وقد رأى عجباً :

الطعن طعن ابي محجن ، والضبر ضبر(١) البلقاء . ولولا انه في محبسه لقلت انه لهو ! وما زال ابو محجن يضرب بقية يومه قدماً حتى ظهرت كفة المسلمين .

وعاد ابو محجن في الغروب يتمايل عجباً فلما رأته سلمى عائداً ظنت ان قد هرب فقالت تعيره :

من فارس كره الطعان يعيرني ... رمحاً اذا نزلوا بمرج الصفر

ونظر ابو محجن الى سلمى ، فأجابها اسرع ما اجاب :

ان الكرام على الجياد مبيتهم ... فدعي الرماح لأهلها وتعطري

وثنى ابو محجن عنان فرسه ، وعاد الى الحرب يضرب في العدو حتى انتصف الليل ، وتحاجز اهل العسكرين ، فعاد ابو محجن الى قيده وهو يقول :

لقد علمت ثقيف غير نكر ... بأنا نحن اكرمهم سيوفا
واكثرهم دروعاً سابغات ... واصبرهم اذا كرهوا الوقوفا
فان احبس فقد عرفوا بلائي ... وان اطلق اجرعهم حتوفا

وكانت سلمى قد رأت فعله وسمعت قوله فأعجبت ببطولته ووفائه وعزة نفسه فدخلت على سعد زوجها فصالحته وكانت مغاضبة ، وانبأته بما قد كان .

وسر سعد ، فدعاه وهو في نشوة اعجابه وغبطته فقال : لك

---

(١) الضبر : الوثب .

حريتك يا ابا محجن ووالله لا احبس بعد اليوم رجلاً اداله الله من اعداء المسلمين ، ولا اعاقبه ما شرب !

فقال ابو محجن وقد بدت عليه سمات عنصره الطيب : لا والله يا سعد ، ما كنت لأشربها بعد اليوم وقد عفوت ! لقد كنت آنف ان يقال خاف ابو محجن الحد .

ومضى ابو محجن وهو يقول :

رأيت الخمر فاسدة وفيها مناقب تهلك الرجل الحليما
فلا والله اشربها حياتي ولا اسقي بها ابداً نديما

وكانت وفاته في السنة الثلاثين للهجرة او قرابها .

من صور البطولة

راعي الغنم

مكة اليوم في أمر مريج ، فقد استحدث فيها محمد بدعة الاله الجديد ، والدين الجديد ، فعكر من صفوها الخالص ، وبدل من طبعها الآمن ، وغير من عيشها الهادئ ، وبدد من نظامها المرسوم . ولكن الدعوة تأخذ طريقها . ولكن الرسالة تشق لنفسها في الشوك طريقاً ، فما تلبث ان تحيا وتنمو ، ثم تتوالد فتنتشر ، فتكون من بعد همس الشفاه ، ونجوى القلوب . وما كانت لتنجح ، وقريش من علمت عصبية ولكنما الاسلام قدر محتوم ، قد سبقت به الكلمة ، فهو يمضي لا يرده راد ولا يدفعه دافع .

وتطلق قريش - وكانت آن ذاك قد اطغتها الحياة ، واطمعتها الثروة ، فتزيدت من كل ضلالة ، وتلذذت بكل مستكره مقبوح ، وذهبت مع الهوى الجانح كل مذهب - تطلق قريش هذي ، لأبي جهل يده في الصابئة يعسفهم اقبح العسف ويكيد لهم شر الكيد ، ويأخذ الرقيق منهم والأحلاف بمكاوي النار في الجنوب وفي الصدور . ثم لا يكفيه ، فيحرق ويخرب ، ويطغي في تحريقه وتخريبه .

هذا ابو جهل في طريقه يسعى لبعض شأنه ، وعلى شفتيه كلام يحدث به نفسه :

جدّ يا عمرو في تسفيه محمد واجتهد في التنكيل بصحبه ومتبعيه . جدّ ، جد ، فقد استقاد لك الملأ من قريش وعما قريب تصير اليك الزعامة فيها .

يقول هذا ابو جهل ، او ما هو منه ، ثم يمضي في طريقه الى غايته خفيف السير ، حثيث الخطى ..

وما هو إلا ان يقترب من المسجد حتى يترامى الى اذنيه همس تخافت به الشفاه . فيلقي السمع ولكن الهمس لا يبين ، فيتقدم مستخفياً ويطأ الأرض حذراً مستأنياً ، متمسحاً بالجدران كبعض لصوص الليل ، حتى يكون من الصوت غير بعيد ، فيتوضح له ، ويستعلن .

كان الصوت يرتفع قوياً حاراً فيه ثورة وتمرد : إلا انكم يا احلاف قريش وعبيدها في حكم الاسلام سواء . ليس لغنيهم على فقيركم فضيلة ولا فضلٌ إلا ان يكونا فضيلة الخلق وفضل الحق ، ولا لأميرهم من صغيرهم مزية الا ان تكون مزية التقوى ...

الا انكم مظلومون ! قد حكمتكم الذلة ، واستبد بكم السادة من قريش فكان فيهم المنع والخمر والموسر ، وكان منكم البائس والعبد والمعسر !

لم لا تستوون ؟

لم لا تستوون ؟

الا انكم مظلومون فثوروا لحقكم المهضوم ، ومخدوعون فاكشفوا عن عيونكم أغطية الغفلة ، ودعوا ما يحملكم عليه ابو جهل تبّت يده من ايثار البغضة ، وحب النفرة ، فان ذلك باطل زائل ...

الا ان من آثر السكوت والرضى منكم ، خليق ان يبقى عبداً نكدا .

وارتفع صوت آخر يقول : صدقت .. صدقت يا عبدالله فقد حلبنا الدهر أشطره ، وقد بلونا العمر الا اقله فلم نلق من قريش الا شراً ، ولم نبل الا مراً ، ولم نشهد الا شقاء دائماً ، والا عذاباً مقيماً .. وها نحن اولاء لم يبق فينا من صفات الخلق الا وجوه قد اصفرها الفقر ، وعيون قد اجف منها الشقاء ماء الحياة .. وقد ، وايم الحق ، آن لنا ان نستوي .

وانطلق الصوت الأول من بعد شجياً نادياً مؤثراً :

« الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ، الشمس والقمرُ بحُسبان ، والنجمُ والشجرُ يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، واقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسِروا الميزان »

وتطاول ابو جهل ينظر من القوم من حيث يَرى ولا يُرى ..

يا للجراءة !! عبدالله بن مسعود !

عبدالله حليف قريش ، يؤلب الرقيق ويستعدي الأحلاف على قريش .

وفجأ الجمع المتحلق ابو جهل ، فما اسرع ما تفرق واستخفى . ولكن عبدالله لم يبرح ..

وصاح ابو جهل : ويحك ... او قد فعلتها يا راعي الغنم ! او قد صبأت ! انفرة من قريش وتمرداً عليها ! انزوعاً الى محمد وايماناً بكفره !

وعلاه ابو جهل بالقوس فأدمى جبينه ، فثارت في نفس عبدالله ثائرة الكرامة المهدورة ، فاذا هو يدفع في صدر ابي جهل ، واذا هو يلطم حر وجهه ، ثم يتولى ، خفيفاً نشيطاً فيذهب الى صحبه فيقول : ما

كان عدوُ الله اهون علي منه اليوم ، فان شئتم غاديته بمثلها غداً . ولكن صحبه يقولون : حسبك يا عبدالله فقد اتيت ما يكرهون ثم يشيرون عليه بالهجرة الى الحبشة .

واما ابو جهل فقد عاد وبطن الأرض احب اليه من ظهرها . فجمع الحمقتين من مخزوم ووقف فيهم يقول وفي عينيه شرر يقدح : اترضون المهانة ؟ لقد واللات والعُزّى اتى ابن ام عبد امراً ادا .. لقد اتى ذنباً لا يغسله الا دمه .

ومضى ابو جهل في صحبه يتربص . ولكن عبدالله قد غادر مكة فلا سبيل اليه .

ودار الفلك دورته ... وانصرعت الأيام الهرمة على طريق الزمن وكانت وقعة بدر ، خرجت فيها قريش لحمد وصحبه من المهاجرين والانصار شفاء لما في صدرها من حقد وغل .

ودارت رحى المعركة ...

هذا هو عبدالله يتقدم الصفوف سباقاً ، سريع الحركة ، فما يرى إلا ذاهباً جائياً ، ميامناً مياسراً ، مهللاً مكبراً ، واني لفي بعض امره هذا ، اذا هو يرى ابا جهل ملقى على الأرض ، وفي صدره جرح ينزف. وكان به رمق يتيح له ان يسمع ، وكانت فيه بقية تتيح له ان يقول : لن تُفلِيت .. لن تظفر يا راعي الغنم .. وغامت الدنيا على وجه ابي جهل واذا هو يتمثل تاريخاً غبر ، يتمثل ابن مسعود في مكة مذيعاً بدعة محمد ، ويتمثله الى جدار المسجد محرضاً رقيق قريش ، مستعدياً احلافها . ثم هو يتمثله بعد هذا ، لاطماً حر وجهه ، وهو سيد مخزوم .

يا للجراءة . يا للوقاحة . يا للفعلة النكراء يأتيها العبد الزنيم ..

ويرده الى رشده او بعض رشده صوت عبدالله يقول : ويحك يا أبا جهل ، لقد كدت لمحمد ، وها قد رد كيدك الى نحرك ، ها قد اخزاك الله ولقّاك مصرعك ، فأين آلهتك تدفع عنك ؟ اين اللاتُ والعُزّى ، اين مُناةُ وهُبَل ؟

وكان صوت عبدالله يتناهى الى ابي جهل خافتاً ضعيفاً .. فسكت ولم يرجع اليه جواباً . وما هو الا ان ينقطع الصوت حتى يغيب ابوجهل عن دنياه . فيحتز ابن مسعود رأسه ، ويمضي وفي اذنيه صوت من حياته في مكة ، صوت كان يأتيه كالهمس خفياً : ويحك او قد فعلتها يا راعي الغنم ؟ او قد صبأت ؟ ... وفي ذهنه كانت صورة يذكر فيها يداً علته بالقوس فأدمت جبينه .. وعلى شفتيه كان تسبيح وحمد : يا رب .. سبحانك سبحانك .. ما اقواك ، ما اكرمك ، ما اعدلك .

ويذهب ابن مسعود الى النبي مكبراً يعالنه الخبر وفي يده رأس ابي جهل .. فكبر النبي ، وكبر المسلمون ...

وبقي عبدالله بعد هذا ملازماً النبي ، فكان احب صحبه ، واقربهم له سمتاً ، وادناهم اليه دلاً ، واشبههم به سكينة وهدياً . وكان صاحب سواده ، وسواكه ، ونعله .. حتى قال فيه صلى الله عليه وسلم ذات يوم : لو كنت مؤمراً احداً دون شوري المسلمين ، لأمّرت ابن أم عبد . » وحتى ظنه الناس بعض اهله .

كان خفيفاً نحيفاً ، قُصار القامة ، آدم البشرة ، قضيف العظام ، يرسل شعره الى ترقوته . قدم مكة راعياً لعُقْبه بن ابي مُعَيْط الأموي ثم أسلم في حادث له مع الرسول ، وابي بكر .

ابوه مسعود بن غافل من هُذَيْل ، وامه أم عبد بنت هند بنت

الحارس بن زهرة بن كلاب .

ولم يوجد كان رحمه الله احفظ منه للقرآن ، وعنه أخذ اهل العراق قراءتهم ، وكان بينهم وبين اهل الشام اختلاف ، فقد اخذ اولئك عن ابيّ بن كعب كاتب الرسول بعد عثمان وعلي .

قال له النبي مرة : اقرأ علي سورة النساء . قال عبدالله : أأقرأ عليك وعليك قد انزل ؟ ! فقال النبي : اقرأ ، فاني احب ان اسمعه من غيري . فقرأ عبدالله حتى بلغ قوله تعالى مخاطباً الرسول « .. فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد . وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ، يومئذ يود الذين كفروا وعصَوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثاً ... » فبلغ التأثر منه « صلعم » مبلغ البكاء ثم قال : « من سره ان يقرأ القرآن غضاً كما انزل فليقرأه على قراءة ابن ام عبد . »

وما لبث النبي ان قبضه الله اليه ، فانفرد عبدالله بنفسه ، ثم اقام في حمص ما اقام بعد ان فُتِحَت على المسلمين حتى استقدمه عمر بن الخطاب فعهد اليه امر الكوفة مع عمّار بن ياسر ، وكتب الى اهلها :

اني بعثت عمار بن ياسر اميراً ، وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من اصحاب الرسول ، من اهل بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان ، فاقتدوا بهما ، واطيعوا واسمعوا قولهما ، ولقد آثرتكم بعبدالله على نفسي » .

وبقي عبدالله اميناً على بيت مال الكوفة معلماً لأهلها حتى كانت خلافة عثمان فأبقاه ، ثم استقدمه بعد ان كتب فيه الوليد بن عقبة ـ أخي عثمان لأمه ـ امير الكوفة الجديد اذ ان عبدالله لم يرض عن سيرته ولا عن سيرة عثمان وقد جهر بهذا .

واساء اليه عثمان فيما يروى ، فقد اغلظ له القول وامر احد غلمانه فضرب به الارض عند المسجد فكسرت احدى ضلوعه ! وندم عثمان فسعى اليه معتذراً ، ثم وسط زوجاً من ازواج النبي عنده فلم يقبل عبدالله وساطتها ، وما لبث ان مات بالمرض في المدينة عام اثنتين وثلاثين هجرية ، ودفن بالبقيع عند قبر عثمان بن مظعون . وكانت وصيته ان لا يصلي عثمان عليه فأنفذها عمار بن ياسر .

رحمه الله ، فقد كان رجلاً من رجال الاسلام ، وبطلاً من ابطال الدعوة . وهل تبلغ البطولة فيما تبلغ أعلى من منزلتها حين يجرؤ راع محروم من اسباب القوة ، مجرد من وسائل المنعة ، هاجر من قصايا نجد في التماس الخبز لا أدم معه ، فيخرج على قريش ويكون اولَ من يقرأ القرآن جهراً ؟ ! !

ان في ذلك لعبرة ، وان في ذلك لمثلاً ، رحمه الله ، واجزل له المثوبة .

بين الشعبي والأخطل

كان الشعبي يسير في حرس الحجاج مبهوراً وجلاً ، متعثراً بخطاه، وهو يحدث نفسه في نفسه :

ويحك يا عامر ! فيم يرسل اليك الحجاج يرتادك ؟ . أثمّ شرك يُحبل لك ؟ ايكون حظك منه حظ سعيد بن جبير ومن قد ضوى معه الى ابن الأشعث ؟ .

ويح الظلوم الغشوم ، ويح الجائر الماكر . ايستحل دماً ، او يفعلها ابن الرعاء ؟ !

لا . ذلك وهم يا عامر . وفيم ؟ او لم نقر بذنبنا : « نبا بنا المنزل ، واحزن بنا الجناب ، واستحلسنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة اتقياء ، ولا فجرة اقوياء ...

ولكنه الحجاج يا عامر لا ام له . وما اخاله الا كائداً بك شاركاً لك ، غادراً غدرة النمر الشرس .

ويحك يا عامر . شقيت وشقيت ام حملتك . اما والله قد وقعت ، وما اخالك منفلتاً منه دون مساءة تنالك ، ومكروه يرميك .

وانطلق بالشعبي وعليه خفتة الموتى حتى ادخل على الحجاج وليس

عنده احد ، فأقعد مبهوتاً ما يحير لفظة ،وهو يرتعش وجبينه يرشح عرقاً .

وادرك الحجاج ما به من فرق ، فرحب وحيا ، واقبل عليه يباسطه ويمازحه حتى افرخ روعه وسرى عنه .

قال الشعبي : جعلت فداك يا ابا محمد ، والله لقد اتيت وبطن الأرض احب اليّ من ظهرها !

قال الحجاج : ويحك يا عامر . او قد بلغت هذا منك ؟ !

قال الشعبي : اي والله . فما كنت احسب الا انك موردني حياض الموت ومبدلني بالدنيا ناراً تلظى !

فقال الحجاج وقد بدت على شفتيه ابتسامة : لا بأس عليك يا عامر فانما اردت الحديث .

فقال الشعبي : يغفر الله يا ابا محمد .

قال الحجاج : هات يا شعبي حدثني : كيف علمك بكتاب الله ؟ قال الشعبي : اليّ فيه المنتهى : قال : فبالحديث ؟ قال : عني يؤخذ . قال : فبالفرائض ؟ قال : قتل ارضاً عالمها ؟ قال : فبالانساب ؟ قال : ابن بجدتها قال : فباللغة ؟ قال : قاموسها ومحيطها . قال : فبالشعر ؟ قال : راويته ، ومع انه اقل بضاعتي فأنا استطيع ان اروي لك منه شهراً كاملاً لا افرغ .

قال الحجاج ، لله ابوك . انت والله بغية امير المؤمنين ، فلقد ارسل اليّ ان قبلك عامر الشعبي فابعث به الي يناقلني الحديث (١) . وقد اردت على معرفتي بمكانك في العلم والأدب ان اسألك ما انت فيهما ، فلقد تعلم ما

(١) يروي ابن عبد ربه في العقد الفريد أن عبد الملك ارسل الى الحجاج: ابعث الي رجلاً يصلح للدين والدنيا اتخذه سميرا وجليساً ، فقال الحجاج : ما له الا الشعبي .

امير المؤمنين وقارأ وجداً وورعاً، وعلماً بالفقه، وحفظاً للشعر، وبصراً بالنقد، في ثقوب ذهن، وذرابة لسان، وسحر منطق. وان امير المؤمنين بعد هذا لتعيب نصيب. فان اردت حظوته فأرح قلبه بشيء يلهيه.

ما سمع الشعبي قول الحجاج، حتى استأذن لفوره فقد اخرجته الغبطة من ثيابه. فلما كان الغد ركب فحله الرحول، وخرج يغذ السير الى الشام في اثنتي عشرة ليلة..

* * *

ما ان بلغ الشعبي دمشق، حتى انطلق من مساء يومه الى قصر الخلافة يطلب الاذن على عبدالملك بن مروان. فأذن، وهش له وبش به. واستدناه فأقعده قريباً منه عن شماله.

وكان امام عبدالملك رجل تمشى في رأسه الشيب وقد تدلى من عنقه صليب، وانبعثت من فيه رائحة الخمر.

قال عبد الملك وقد أقبل عليه: ويحك! من أشعر الناس؟

فأجاب الرجل وفي صوته زهو وعجب: ومن غيري يا امير المؤمنين!

ما طرق الجواب اذن الشعبي حتى اظلم ما بينه وبين عبد الملك ولم يصبر أن هتف: من الدعيّ يزعم انه اشعر الناس يا امير المؤمنين؟

فالتفت عبدالملك وقد عجب من عجلة الشعبي واستخفافه بقدر شاعره فقال: هذا شاعرنا الأخطل يا عامر.

فقال الشعبي وقد زوّى ما بين عينيه: اشعر منه والله يا امير المؤمنين من يقول:

هذا غلام حسن وجهه مقتبل الخير سريع التمام (١)
للحارث الأكبر والحارث الأصغر ، والحارث خير الأنام
خمسة آباء ، هم ما هم هم خير من يشرب صوب الغمام

لم يكد الأخطل يسمع هذا التحدي حتى استجاش فالتفت الى عبدالملك يقول : من هذا المجترىء يا امير المؤمنين ؟ فقد عبد الملك : انه الشعبي يا ابا مالك نادرة الدنيا ، وفقيه العراق .

فلوى الأخطل ، وزم . وهز كتفيه .

قال عبدالملك وقد اقبل على الشعبي : ما تقول في النابغة يا عامر ؟ قال الشعبي : سابق محكوم له بالسبق يا امير المؤمنين . فقد خرج عمر ابن الخطاب يوماً وبابه وفد غطفان فقال : يا معشر غطفان ، أي شعرائكم الذي يقول :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا النابغة .

قال فأي شعرائكم الذي يقول :

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع

قالوا النابغة .

قال فأي شعرائكم الذي يقول ،

الى ابن محرق اعملت رحلي وراحلتي وقد هدت العيون
اتيتك عارياً خلقاً ثيابي على خوف تظن بي الظنون

(١) الأبيات للنابغة الذبياني

فألفيت الامانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا النابغة .

قال هذا اشعر شعرائكم

والتفت عبدالملك الى الاخطل يقول ، يا ابا مالك ، اكنت تحب ان لك قياضاً بشعر احد ؟ فقال الاخطل ، لا . ولكنني وددت يا امير المؤمنين انني قلت ابياتاً قالها رجل منا . كان والله مغدف القناع ، قليل السماع ، قصير الذراع . قال عبدالملك وما قوله ؟ قال الاخطل :

انا محيوك فاسلم ايها الطلل وان بليت وان طالت بك الطيل

حتى وصل الى قوله :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

ما سمع الشعبي هذا حتى جمع جمعه ، وتنحنح وهتف وفي صوته رنة سخر : تالله لقد قال القطامي خيراً من هذا . فقال عبدالملك : وماذا قال القطامي ؟ فأنشد الشعبي :

طرقت جنوب رحالنا من مطرق ما كنت احسبه قريب المعنق

إلى ان قال :

واذا يصيبك والحوادث جمة حدث حداك الى اخيك الاوثق

ليت الهموم عن الفؤاد تفرقت وحلى التكلم للسان المطلق

اعجب عبدالملك بالابيات ، ولكنه ما ان رأى شاعره الاخطل وقد هاج واضطرب ورشح جبينه وداخله الغيظ حتى اخذته الحمية ، وبدا له ان يُذهب عنه بعض ما به فقال : ما اشعرك يا اخطل حين تقول في الخمر :

وتظل تنصفنا بها قروية ابريقها برقاعه ملثوم
فاذا تعاورت الاكف زجاجها نفحت فشم رياحها المزكوم

فكانت هذة اللفتة من عبدالملك كافية لتسل من الاخطل غضبه وغيظه . فعطف على الشعبي يسائله في زهو المعجب وشماتة المنتصر ، أسمعت بمثل هذا ؟

ولكن الشعبي ما كان ليدع الاخطل دون ان يناله فتنحنح وامرّ يده على لحيته وقال ، لو يُنشَر شيخك الاعشى لردعك :

وادكن عاتق حجل رَبحل صبحت براحه شرباً كراما
من اللاتي حملن على المطايا كريح المسك تستل الزكاما

فهتف الاخطل كمن خولط ، قدوس ، قدوس . وهز عبد الملك رأسه . وحَكَم للأعشى .

شعر الاخطل بالخطر فقد حشا مسامعه هذا العراقي بما ارمضه . وقد سدد اليه سهاماً مراشة اصابت منه المقاتل . فقال وقد دارت عيناه في رأسه ، وفي صوته مشابه من صفير الريح وهدير البعير ، اسمع يا شعبي . ان لك لفنوناً في القول تتصرف بها فتعجب ، وانا لنا لفناً واحداً لا نحسن غيره . وان بك لغزارة ومحايلة ، وان بنا لشماساً وحرانا فدع ما انت فيه قبل ان تحملني على اكتاف قومك فأدعهم حرضاً .

سقط في يد الشعبي وتحير ، فهو يعرف لسان هذا التغلبي السلط . وهو يعرف ما قد يجره على قومه هذا الذي لم يتورع عن هجاء الانصار فقال وقد تكمش في ثيابه كمن رش بماء بارد في قرس الشتاء ، أقلني يا ابا مالك ، فلن اعود .

وضحك عبدالملك وقد دخل على قلبه سرور بما كان بين الشعبي والاخطل . ثم التفت الى الشعبي فقال ، اخبرني يا عامر ، اي شعراء الجاهلية اشعر من النساء ؟ قال الشعبي : الخنساء . قال : ولم فضلتها ؟ قال لقولها في صخر :

وقائلة والنعش قد فات خطوها لتدركه ، يا لهف نفسي على صخر
ألا ثكلت ام الذين غدوا به الى القبر ماذا يحملون الى القبر

فقال عبدالملك ، اشعر منها يا شعبي ليلى الاخيلية حين تقول في في توبة بن الحمير :

مهفهف الكشح والسربال مُنخرق عنه القميص لسير الليل مُحتقر
لا يأمن الناس ممساه ومصبحه في كل حي وان لم يغز ينتظر

فهز الشعبي رأسه وسكت . فقال عبدالملك: واحدة يا شعبي فقال الشعبي : لن ازيد يا امير المؤمنين .

وبقي الشعبي بعد هذا ملازماً عبدالملك بن مروان فكان اول من يدخل عليه وآخر من يفارقه . وكان يدخل السرور على عبدالملك فقد كان مزّاحاً فاشي الدعابة ، الى سرعة جوابه وحضور بديهته .

مرّ به خياط فقال له الشعبي : عندنا حب مكسور تخيطه ؟ . فقال الخياط : نعم ان كان عندك خيط من ريح . وقيل له : ما لنا نراك ضئيلاً ! فقال : زوحمت في الرحم . ذلك انه ولد توأماً . وسأله الحجاج يوماً كم عطاءك ! فقال : ألفين . قال : ويحك كم عطاؤك ! قال : الفان قال الحجاج : كيف لحنت ؟ قال الشعبي : لحن الأمير فلحنت فلما اعرب اعربت ، وما كان لي ان يلحن الأمير واعرب .

وسئل عن اسم امرأة ابليس فقال : هذا زواج ما شهدناه . وقال له رجل : ما تقول في الذباب . قال : ان اشتهيته فكله .

وكان الى خفة روحه هذه ورقة حاشيته عالماً حتى قال الزهري : العلماء اربعة : سعيد بن المسيب في المدينة ، والشعبي بالكوفة ، والحسن البصري في البصرة ومكحول بالشام . وكانت الناس تقول بعد الصحابة ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه والثوري في زمانه .

وكان يقول عن نفسه : ما كتبت سوداء في بيضاء الا حفظتها ، وما حدثت انساناً بحديث مرتين .

وكانت وفاته بالكوفة فجأة ، وقد اختلف فيها كما اختلف في ولادته .

زرياب

معلم الناس المروءة

... قال الرشيد :

لقد اعجبني ما تذكر من امر تلميذك وما تصف يا اسحق . فأحضريه لعل حاجتي عنده .

فلما كان الغد . وانعقد سامر الرشيد احضر اسحق تلميذه زرياب.

قال الرشيد : ما معرفتك بالغناء يا زرياب ؟

قال زرياب : أحسن منه ما يحسنه الناس يا مولاي ، واكثر ما أحسنه لا يحسنونه ، مما لا يحسن إلا عندك ، ولا يدّخر الا لك ؛ فان أذنت غنيتك ما لم تسمعه اذن قبلك .

فأمر الرشيد باحضار عود استاذه اسحق ؛ فلما أدنى اليه وقف زرياب عن تناوله .

قال الرشيد : ما بك ؟

قل زرياب ، لي عود تحتّه بيدي ، وأرهفته باحكامي ، لا ارتضي غيره ، وهو بالباب ، فان أذن لي امير المؤمنين باستحضاره غنيت .

قال الرشيد : ذلك لك . وامر باحضاره ، فلما ابصره قال ، ما منعك ان تستعمل عود استاذك وما اراهما إلا واحداً ؟ !

فقال زرياب : ان كان مولاي يرغب في غناء استاذي غنيته بعوده وان كان يرغب في غنائي فلا بدّ لي من عودي . واما انهما واحد فقد صدقت يا مولاي ؛ ولا يؤدي النظر غير ذلك ، ولكن عودي وان كان في قدر جسم عوده ، ومن جنس خشبه الا انه من وزنه في الثلث او نحوه . وقد صنعت اوتاري من حرير غزل بماء ساخن فأكسبها أناثة ورخاوة . واتخذت بمّها ومثلثها (١) من مصران شبل اسد فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة اضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان . ولها من الصبر على تأثير وقع المضارب عليها ما ليس لغيرها .

قال الرشيد ، غن يا زرياب ، فانما تحكم الأذن . فجس زرياب عوده ثم اندفع يغني .

يا ايها الملك الميمون طائره هارون راح اليك الناس وابتكروا

فما اتم غناءه حتى طار الرشيد طرباً ، وقال ، والله لولا اني اعلم صدقك يا اسحاق وتصديقه لك ، انك لم تسمعه قبل ، لأنزلت بك العقوبة ، لتركك اعلامي بشأنه ، فخذه اليك ، واعتن به حتى افرغ له من بعض عملي فان لي فيه لنظرا .

سقط في يد اسحق ، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره فخلا بزرياب وقال له :

يا علي ؛ ان الحسد اقدم الأدواء ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة ، ولا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت

---

(١) وتران من اوتار العود

عليه من اجادتك ، وعلوّ طبقتك ؛ واني قصدتُ منفعتك حين ذكرتك للرشيد فاذا انا وقد اتيت نفسي من مأمنها ، وعن قريب تسقط منزلتي ، وترتقي انت فوقي ، وهذا ما لا اصاحبك عليه ولو انك ولدي ، فتخير في ثِنْتَيْن لا ثالث لهما : ان تذهب عني في الأرض العريضة لا اسمع لك خبراً وأنهضك لذلك بما اردت من مال وغيره ، او ان تقيم على كرهي ورغمي مستهدفاً اليّ ، فخذ حذرك ، فلست والله ابقي عليك ، ولا ادع طريقاً الى اغتيالك ، باذلاً في ذلك بدني ومالي ، فاقض قضاءك وتخير .

وكان زرياب يعلم قدرة اسحاق على انفاذ مايريد ، فاختار الضرب في الأرض العريضة ، واعانه اسحق فراش جناحه ، ومضى يبغي مغرب الشمس .

* * *

غادر زرياب بغداد وفي نفسه حسرة ، حتى كان بافريقيا فاتصل بصاحبها زيادة الله الأغلبي ، ولكنه مل المقام بعد ان لم يطب له فقصد منها الى المغرب الأقصى وكتب الى امير الاندلس الحكم بن هشام ، وكان مولعاً بالموسيقى فاستأذنه في ان يصير اليه ، فأذن له من فوره ، ولكنه ما ان عبر البحر وتأهب للرحيل الى قرطبة حتى بلغه نبأ وفاة الحكم فهم ان يقفل ادراجه لولا أن عبد الرحمن بن الحكم امير الاندلس الجديد تقدم اليه في المجيء بمنيله ما يرغب ، باذلاً له ما تصبو اليه نفسه من مال وجاه .

وخرج عبدالرحمن بنفسه لتلقيه فأدخله قرطبة ليلاً مع اهله وانزله في دار حسنة واسنى له الجوائز ، وخلع عليه الخلع ، واجرى عليه مائتي دينار راتباً كل شهر ، وعلى كل واحد ممن قدم معه عشرين ديناراً ، وأقطعه من الدور والبساتين والضياع ما يُقوَّم بأربعين الف

دينار ، وجعل له مائة مملوك في ركوبه بين يديه . فلما علم ان قد قضى له سؤله ، وانجز موعوده ، وارضاه . استدعاه فلما سمع غناه اطرح كل غناء سواه ، وجعل بينه وبينه باباً خاصاً يدخل عليه منه كلما راق له السماع واشتهاه .

* * *

لم يكن زرياب مغنياً مجيداً فحسب ، فقد كان الى اجادته للغناء عارفاً بالنجوم والجغرافية ، شاعراً فصيحاً . ولكنه الى الغناء اميل واقبل ، وبه اشغف واعرف . وكان الى هذا ذكي الحس ، سلس الطبع لطيف المزاج ، خفيف الروح ، ساحر الحديث ، حلو الشمائل .

اسمه الحقيقي ابو الحسن علي بن نافع ، وزرياب لقب غلب عليه . وتقول كتب التاريخ ان الكلمة مأخوذة عن الفارسية واصلها « زر » وهو الذهب ، و « آب » وهو الماء ، فيكون معناه ماء الذهب تشبيهاً لحلاوة شمائله او جماله .

ويترجم له البعض فيقول ان زرياب لقب غلب عليه في بلاده من اجل سواده مع فصاحة لسانه ، وشبه بطائر اسود غرد عندهم .

وهو قول اقرب الى الصواب وادنى من الحقيقة . فزرياب اسم لطائر هو ابو زريق ، ولكنه ازرق اللون أدكن ، وليس أسود ولا حلو التغريد .

وقد فعل زرياب بالاندلس ما لم يفعله مغن آخر ، فقد زاد اوتار العود الاربعة وتراً خامساً اختراعاً منه ، واعتاض من مرهب الخشب مضراباً من قوادم النسر للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الاصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه . وجعل قاعدة الغناء البدء في

النشيد بأي نقر كان ويأتي في اثره بالبسيط ثم يختم بالمحركات والاهزاج وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بألحانها ، وقد حسب ان الجن تطارحه وتعلمه ، فكان يهب من نومه مسرعاً عجلان فيدعو جاريتيه غزلان وهنيدة فيأخذان عودهما ويأخذ عوده ويقيد ما وقع له . واكبر الظن ان زرياب كان يحسب ما يُتخيل له في إلهامه شيئاً من الجن ، كما ظن ذلك من قبله ابراهيم الموصلي .

وكانت لزرياب طريقة في التعليم مبتكرة . يقول المقري ، « وكان اذا تناول الالقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة . وان يشد صوته جداً اذا كان قوي الصوت ، فان كان لينه أمره ان يشد على بطنه عمامة فان ذلك مما يقوي الصوت ولا يجد له متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم . فان كان ألص الاضراس لا يقدر على ان يفتح فاه او كانت عادته زم اسنانه عند النطق راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث اصابع ، يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه . وكان اذا اراد ان يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره ان يصيح باقوى صوته ، يا حجام ، او يصيح آه ويمد بها صوته فان سمع صوته بها صافياً ندياً ، قوياً ، مؤدياً لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس عرف ان سوف ينجب ، واشار بتعليمه وان وجده خلاف ذلك ابعده » .

ومعنى هذا ان زرياب قد اهتدى بثاقب نظره وسلامة حسه الى خير اسلوب في تعليم الغناء وانه وضع بهذا قواعد مدرسية للتعليم لم يسبقه اليها سابق ولحقه فيها الكثيرون .

ويقول ابن خلدون : « . . فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوائف ، وطما منها بأشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بأفريقية والمغرب وانقسم على

امصارها ، وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها » .

ولم يقتصر اثر زرياب في الاندلس على الغناء وصناعته ، بل لقد يكون في الحياة الاجتماعية ابعد اثراً واكبر خطراً .

فقد اصبح زرياب قدوة في مطعمه وملبسه واسلوب حياته . كان كل من في الاندلس من رجل وامرأة يرسل جمته مفروقة وسط الجبين عامة للصدغين والحاجبين . فجاء زرياب فحذّف هو وولده ونساؤه شعورهم وقصروها دون جباههم وسووها مع حواجبهم ، ودوّروها الى آذانهم واسدلوها الى اصداغهم فاتبعه الناس .

وكان زرياب اول من اجتنى بقلة الهليليون ، واوجد انواعاً من الاكل والتقلية واستبدل آنية الزجاج عن آنية الذهب والفضة وجعل أغطية الموائد من الاديم لأن ذلك انطف لها وآنق .

ولبس الثياب ملائماً بينها وبين الفصول فجعل لكل فصل لوناً ، وعلم النساء ان يبسطن فوق ملاحف الكتان انطاع الاديم اللين .

وغير هذا كثير ، حتى قيل عنه : معلم الناس المروءة .

وقد أخذ عن زرياب كثير من الجواري اشهرهن مصابيح ، التي كتب صاحب العقد الفريد الى مولاها يقول :

يا من يضن بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسب هذا الضن من احد
لو ان اسماع اهل الارض قاطبة أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فخرج مولاها حافياً وادخله الى مجلسه فتمتع بسماعها .

ومنهن « منفعة » وهي جارية ادبها زرياب وعلمها احسن اغانيه حتى شبت ، وكانت رائعة الجمال ، وكانت تقف بين يدي الامير تغنيه وتسقيه فأحبها فلما فطنت لاعجابه بها أبدت له دلائل الرغبة فأبى الا التستر فغنته

بابيات لها :

يـا من يغطي هواه من ذا يغطي النهـارا
قـد كنت املك قلبي حتى علقت فطـارا
يـا ويلتـا أتراه لي كان او مستعارا
يـا بأبي قرشيّ خلعت فيه العـذارا

فانكشف امرها لزرياب فاهداها له وحظيت عنده .

وكان زرياب ايضاً كما اسلفنا شاعراً اديباً غير انه لم يبق لنا من شعره ما يجعلنا نقول فيه برأي سوى مقطوعات صغيرة لا تليق بشهرته ، وان تميزت بخلوها من التكلف . منها قوله :

علقتهـا ريحـانة هيفـاء عاطرة نضيرة
بين السمينة والهزيـلة والطويلة والقصـيرة
لله ايام لنـا سـلفت على دير المطـيرة
لا عيب فيهـا للمتيم غير أن كانت قصيرة

والبيت الأخير في المقطوعة بيت جميل يذكرنا بقول القائل :

ليـالي جمعن شتات المنى ولا عيب فيهن إلا القِصَر

وقد خلف زرياب اولاداً ذكوراً ثمانيـة هم : عبد الرحمن . وعبيد الله . وجعفر . ومحمد . وقاسم . واحمد . وحسن . وثنتين اناثاً هما : عليه وحمدونة . وقد أخذوا جميعاً عن ابيهم بعض صناعته وسبق من بينهم عبدالله ، فعبدالرحمن . ولكن عبد الرحمن هذا كان شديد الزهو كثير العجب ، فكان لا يسلم مجلس يحضره من كدر ، ولو تهيأ له بعض ما كان لأبيه من خلق لكان حرياً ان يكون شيئاً يذكره التاريخ .

وقد توفي زرياب عام ٢٣٠ هـ .

وقعت في الكتاب أخطاء بسيطة
لا تغيب عن فطنة القارئ الكريم
فنعتذر عنها ونعتبر هذه الملاحظة
تصحيحاً لها .

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 073553305
2269
.3745
.311
P